TAG-810-04/01

سجل تحت رقم 1/630
بتاريخ 04 جوان 2008
الرقم

الجمهورية الجزائرية الديموقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة أبي بكر بلقايد – تلمسان –
كلية الآداب والعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية
قسم اللغة العربية وآدابها
شعبة الأدب المغربي القديم – ماجستير–

رسالة جامعية لنيل شهادة الماجستير

بعنوان

أدب الرحالة الجزائريين

في الخمسية الهجرية الثانية

إعداد الطالب
عبد الصمد عزوزي

إشراف الأستاذ :
د. محمد زمري

لجنة المناقشة :

أ. د. محمد مرتاض : رئيسا

أ. د. محمد زمري : مشرفا

أ. د. محمد محيي الدين : عضوا

أ. د. محمد طول : عضوا

1424 هـ - 2003 م

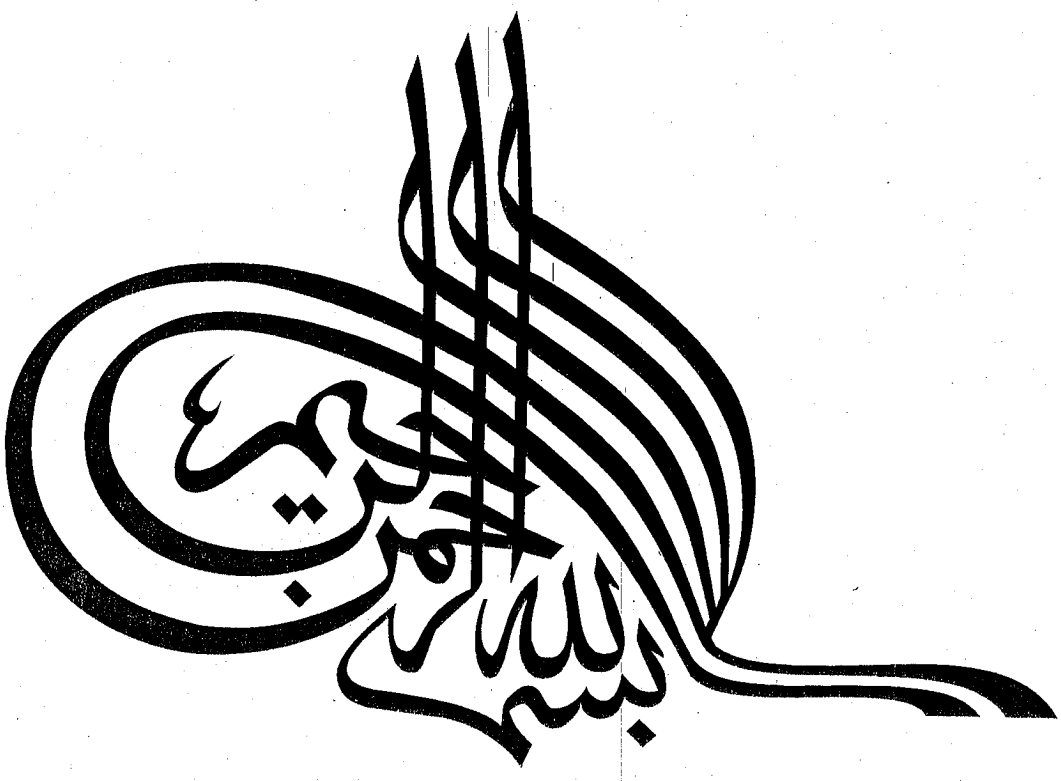
بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

- إلى الوالدين الكريمين.
- إلى أساتذتي الأفاضل في مرحلة الماجستير شعبة "الأدب المغربي القديم".
- إلى كل من بذل جهدا في سبيل إحياء تراثنا الأدبي المغربي والجزائري.

إلى كل هؤلاء

أهدي هذا العمل المتواضع.

عبد الصمد عزوزي

نوقشت هذه الرسالة بتاريخ: 30 صفر 1427 هـ.
الموافق لـ: 29 مارس 2006م.

مقدمة

يتناول هذا البحث موضوعا هاما من مواضيع النّثر العربي، والذي اصطُلح على تسميته باسم "أدب الرّحلة". هذا الأدب الذي ظهر بانتشار الإسلام، واتّساع فتوحاته. وقد عرف أدب الرّحلة تطوّرا ملحوظا في القرن الرابع الهجري، فأصبح فنّا بارزا من فنون النّثر العربي، مُستقلا بذاته، مُتميّزا بخصائصه. وقد اتّخذ أدب الرحلة مكانة أثيرة عند المغاربة منذ الأعوام الأولى لدخول الإسلام إلى بلاد المغرب، فأولوه عناية خاصة، حتّى أصبحوا روّادا فيه لا ينازعهم في ذلك أحد.

فكيف عرف المغاربة أدب الرحلة؟ ومتى ظهر عندهم ؟

كيف كان اهتمام المغاربة والجزائريين بالرّحلة؟ وهل أولوها قدرها من العناية والاهتمام؟ وكيف وصلوا بأدب الرّحلة إلى المستوى الذي هو عليه الآن؟.

للإجابة على هذه الأسئلة وغيرها، رأينا أن يكون موضوع بحثنا حول أدب الرحلة في المغرب الأوسط (الجزائر)، وقد أطلقنا عليه عنوان: **(أدب الرّحالة الجزائريّين في الخمسية الهجريّة الثانيّة)**.

- **أسباب اختيار الموضوع:**

قد يكون من الصّعب تحديد أسباب اختيارنا لهذا الموضوع، لأن الاختيار لا يكون نتيجة عامل محدّد، إنّما ينشأ على شكل رغبة عامة، ثم يجد من البواعث ما يؤكده. فإقبالنا على دراسة موضوع "أدب الرّحالة الجزائريين" يؤول إلى سببين: ذاتي وموضوعي.

أمّا السبب الذّاتي، فهو رغبتنا في أن نضمّ جهدنا المتواضع إلى الجهود الجبارة التي يبذلها أساتذتنا الأفاضل في (مخبر الدراسات الأدبية والنّقدية في المغرب العربي، من التأسيس إلى نهاية القرن 20)، في سبيل إحياء تراثنا الأدبي المغربي والجزائري. أما السبب الموضوعي، فهو أنّنا لمسنا من خلال مطالعاتنا البسيطة للدراسات التي وُضعت للأدب المغربي، ندرة في الدراسات والبحوث التي تناولت فن الرحلة، على الرغم من أنّ هذا الموضوع يستحق العناية والاهتمام ، لِمَا يتّسم به من خصائص ومُميزات وقيم.

- **منهجيتنا في البحث:**

إنّ المنهجيّة التي اتّبعناها في دراستنا، تقوم على التّحليل والتّعليل، وكانت سمة التحليل هي أبرز سمات منهجية هذا البحث. وقد تعدّدت مصادر بحثنا ما بين أدبيّة

وتاريخيّة وجغرافية وكتب الرحلات. ولم نُحْصِ هنا مصادر بحثنا التي أفدنا منها، فقد أعددنا لذلك قائمة في آخر البحث.

أما محتويات بحثنا، فقد وزّعناها على مدخل وثلاثة فصول، يحتوي كل فصل منها على مجموعة مباحث، وقد بدأناه بمقدمة وأنهيناه بخاتمة.

أما المدخل فقد أعطينا فيه لمحة موجزة عن تاريخ الرحلة وتحدثنا فيه عن ظهور الرحلة عند العرب.

وقد تكلمنا في الفصل الأول، عن مفهوم الرّحلة لغة واصطلاحا. ثم تطرقنا فيه للحديث عن نشأة الرحلة في المغرب العربي، وعن أسبابها وأهدافها. كما بيّنا في هذا الفصل دواعي تدوين الرحلات وأنواعها،ثم أوردنا تراجم قصيرة لرواد الرحلة في المغرب العربي.

وقد خصّصنا الفصل الثاني لموضوع البحث وأساسه، فقد اشتمل على خمسة مباحث، عرّفنا فيه بأشهر الرحالة الجزائريين في الخمسية الهجرية الثانية، وبيّنا طبيعة رحلاتهم وأسبابها ونتائجها. وقد وجدنا صعوبة في اختيار نماذج الرحالة لهذه الفترة، لأننا لو اعتبرنا كل من قام برحلة – في تلك الفترة- رحّالة، لعددنا جميع الجزائريين. لذا اقتصرنا على خمسة رحّالة، سجلوا لنا بعض نصوص رحلاتهم، وهم يُعتبرون من أشهر الرّحالة الجزائريّين في هذه الفترة.

وقد اعتبرنا كل من وُلد في الجزائر ونشأ فيها جزائريّا، كابن قنفذ، وابن مرزوق، وابن الفكون، واعتبرنا كل من وفد على الجزائر- وعاش فيها فترة، وساهم في الحياة العلمية والاجتماعية إسهاما قيّما- جزائريّا، كابن خلدون.

أما الفصل الثالث، والذي تُعتبر مباحثه عناصر مُكملة للموضوع، فقد أبرزنا فيه الخصائص الفنّية والموضوعية لأدب الرحلة في المغرب العربي، كما تحدّثنا فيه عن القيم التي يحتويها هذا الأدب.

أما الخاتمة، فقد سجلنا فيها بعض النتائج التي وقفنا عليها بعد دراستنا لموضوع أدب الرّحلة عند المغاربة والجزائريّين.

وقد أتبعنا الخاتمة بمجموع من الفهارس، كفهرس المصادر والمراجع، وفهرس أسماء الأماكن،وفهرس أسماء الكتب الواردة في البحث، وفهرس الموضوعات، حتى تتمّ

الفائدة وتكتمل. ولم يكن باستطاعتنا في هذه الدراسة المتواضعة الإلمام بكل تفاصيل الموضوع، فذاك أمر بعيد، إنما هي دراسة موجزة مركّزة، تأخذ صيغتها العامة من عملية التعامل مع الأثر الأدبي.

أما الصّعوبات التي اعترضتنا أثناء القيام بعملية البحث، فتتمثّل خصوصا في نُدرة مصادر الموضوع، حيث أن معظم كتب الرحلات ما زالت مخطوطة أو ضائعة، والمطبوع منها، وجدنا صعوبة في اقتنائه أو استعارته، إضافة إلى قلّة الدراسات التي اهتمت بأدب الرحلة، وإذا كانت هناك دراسات فهي غير متخصّصة.

وأخيرا، يجب أن نُلفت الانتباه إلى الاستعمالات المختلفة لبعض المصطلحات. فكلمة (الرحلة)، استعملناها أحيانا، بمعنى عملية التنقل والارتحال، واستعملناها أحيانا أخرى بمعنى كتاب الرّحلة أو أدب الرّحلة.

أما كلمة (الرّحالة)، فقد قصدنا بها أحيانا الرّحالة المفرد، كقولنا (الرّحالة ابن بطوطة)، وقصدنا بها أحيانا أخرى – مجموع الرّحالة، كقولنا (الرّحالة المغاربة).

وقد أردنا التّنبيه إلى هذا، حتى لا يكون هناك التباس في فهم معاني بعض المصطلحات، وقد تظهر معانيها المختلفة من خلال السياق الموجودة فيه.

ولا يسعنا في نهاية هذه المقدمة، إلا أن نتقدم بخالص الشكر والامتنان، إلى كل من ساعدنا في إنجاز هذا البحث، ونُكرّر الشّكر لأستاذنا المشرف الدكتور محمد زمري على نصائحه وإرشاداته القيمة، التي بفضلها خرج بحثنا على هذا الشكل.

كما نتقدم بأسمى معاني الشكر والوفاء، للأساتذة الأفاضل أعضاء لجنة المناقشة على قبولهم مناقشة بحثنا، فجزاهم الله عنا وعن العلم كل خير.

وأخيرا، نرجو أن يكون عملنا هذا مفيدا لنا ولغيرنا، ونتمنى أن يجد هذا البحث صدى في صدر كل قارئ كريم، وإن كنا قد قصرنا من بعض المواطن، فنرجو أن تتاح لنا الفرصة لتلافي ما أمكن من هذا التقصير.

وما التوفيق إلا بالله ، وعليه قصد السبيل.

تلمسان يوم الثلاثاء 18 ربيع الأول 1424
الموافق لـ 20 ماي 2003م.

مدخل : نبذة عن تاريخ الرحلة.

لقد ارتبطت حياة الإنسان ارتباطا وثيقا بالتنقل الدائم، والسّعي في أرجاء الأرض طلبا للرزق، ثم طلبا للمعرفة، فأصبحت عادة التّرحال مُتأصلة فيه، حتى قيل: (وُلِدَ الإنسان راحلاً ...).

1- الرحلة عند الأمم:

لعل أولى رحلات الإنسان ، تلك الرحلات التي قام بها المصريّون القدامى، وقد سجّلوا ذلك على جدران معابدهم بتصاوير بديعة لسُفنهم وهي عائدة من رحلتها في البحر الأحمر.[1]

ثم جاء الفينيقيّون، فأسسوا حضارتهم في ملتقى طرق بين مصر وبلاد الرافدين وآسيا الصغرى، فعملوا في التجارة، وبرعوا في صناعة السفن، وأصبحوا خبراء في الملاحة البحرية. فكانت لهم رحلات كبيرة خاضوا فيها عُباب البحر، حاولوا خلالها التّعرف على السواحل والخلجان لإقامة الموانئ. فدشنوا طرقا بحرية لم يسبقهم إليها أحد.

ثم خلفهم القرطاجيّون في شمال إفريقيا، فلم يتردّدوا في الإبحار بعيدا عن بلادهم فاجتازوا مضيق طارق، وغامروا في المحيط الأطلسي. وقد نوّه المؤرخون برحلتين بحريّتين في القرن الخامس قبل الميلاد هما:

- **رحلة هملكون**: نسبة إلى البحار القرطاجي الذي وصل إلى الجزر البريطانية.
- **رحلة حنون**: نسبة إلى بحار قرطاجي آخر، قاد رحلة قرطاجيّة إلى الساحل الغربي لإفريقيا، وبلغ خليج غانا.[2]

أما الإغريق، فقد دفعتهم طبيعة أرضهم القاسية التي كانوا يعيشون عليها إلى التّوسع وإقامة المستعمرات، فعُنُوا عناية خاصة بوصف البلدان التي زاروها، وقدموا لنا الكثير من المعارف الجغرافية. ولعل أكبر رحالة عرفه الإغريق، هو المؤرخ "هيرودوت" الذي زار مصر سنة (450 ق.م)، وتوغل في الصحراء، ثم اتّجه شمالا فتوغل في آسيا الصّغرى، ودوّن كلّ ما رآه في كتابه المسمّى (تاريخ هيرودوت)[3].

---

[1] الرحلات: شوقي ضيف، ص 7، دار المعارف ، مصر ، ط3.

[2] مدنية المغرب العربي في التاريخ، احمد صفر، ص 102- 401، دار التراث ، مصر.

[3] الجغرافية التاريخية: بين النظرية والتطبيق، عبد الفتاح وهيبه، ص 254، دار النهضة العربية، بيروت، 1980م.

ثم جاء الرومان، فأسسّوا إمبراطورية واسعة، وانطلق الرحالون شرقا وغربا يجمعون أخبار البلاد المفتوحة، وفي مقدمة هؤلاء المؤرخ "يوليوس قيصر"، الذي دوّن رحلته في كتابه المسمّى (التّعليقات).[1]

ونلتقي في القرن الثّاني للميلاد الأديب "أبليوس"، الذي ولد بالشرق الجزائري سنة 125م، واشتُهر بثقافته الواسعة، ورحلاته إلى إيطاليا واليونان، فاطلع على أبرز التّيارات الفكرية والأدبية في عصره.[2]

ثم جاء دور العرب، وفتحوا البلاد من الهند إلى المحيط الأطلسي، فوصف مُؤرّخوهم مدن البلاد المفتوحة، والطرق التي تربط أقاليمها، فكثرت الرحلات عند العرب، وتنوعت أسبابها ودوافعها، كما نشأت عند كثيرين منهم حبّ المجازفة في ما وراء المعروف، وسنفصّل الحديث عن الرّحلات عند العرب في موضع آخر.

ولما جاءت الحروب الصّليبية، فُتحت صفحة جديدة في تاريخ أوربا، فأخذ أهلها يُسجلّون أسفارهم ورحلاتهم، فنجد " ماركو بولو" يقوم برحلته الشهيرة، ويدوّن ما رآه وشاهده ، انطلاقا من بلده إيطاليا إلى سهول منغوليا في الصين.[3]

وفي القرن الخامس عشر للميلاد، يندفع "كريستوف كولمب" ليكتشف مجاهل المحيط الأطلسي، فيكتشف أمريكا، ثم جاء "فاسكودي جاما' ليكتشف بحر الهند، وتتعاقب الاستكشافات الأوروبية في القارات القديمة والحديثة.[4]

وفي القرن التاسع عشر، تكالب الأوروبيّون على استكشاف إفريقيا الداخلية لنهب خيراتها واستغلال ثرواتها، وسلكوا في ذلك مسالك وأساليب عديدة غير إنسانية، ولم تكن دوافع رحلاتهم سليمة، فكان فريق منهم يزعم أنه إنما يقوم بهذه الرحلات، سعيا منه لإنقاذ أرواح الأفارقة من العذاب في الآخرة بإدخالهم إلى حظيرة المسيحية، لأن المسلمين في نظرهم مجرد وثنيين.[5]

---

[1] الرحلات، شوقي ضيف، ص 8.

[2] تاريخ شمال إفريقيا، شارل أندري جوليان، ترجمة: مجموعة مؤلفين، ص 329 وما بعدها، الدار التونسية للنشر، تونس، 1976م.

[3] تاريخ الرحلة والاستكشاف، اسماعيل العربي، ص 37، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ، 1986م.

[4] المرجع نفسه، ص 84 – ص 133.

[5] المرجع نفسه، ص 32– ص 339.

وهكذا أرست هذه الرحلات، وبرعاية الكنيسة قواعد متينة لاستعمار إفريقيا.

أما في القرن العشرين، فاقتُصرت الرحلات-خاصة عند العرب-على البعثات العلمية، والوفود الجامعية ، والرحلات الخاصة، من ذلك رحلة "رفاعة الطهطاوي" التي قام بها إلى فرنسا، ورحلة "البتانوني" إلى مكة المكرمة، ورحلة "الشيخ البشير الإبراهيمي" في مناطق الجزائر، ورحلة "الفضيل الورتلاني"، ورحلة "محمد حسين هيكل" إلى الحجاز، وغير هذه الرحلات كثير.

2- الرحلة عند العرب:

لقد عُرف لدى العرب قبل الإسلام رحلتان، رحلة الشتاء إلى اليمن، ورحلة الصيف إلى الشام. وقد جاء ذكرهما في القرآن الكريم في قول الله تعالى:﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾[1].

ويرى جُلّ الباحثين أن هاتين الرحلتين كانتا للتجارة، لأن أهل مكة كانوا تجّارا.

وما إن جاء الإسلام، وانتشر في أرجاء الجزيرة العربية، حتى بدأت الفتوحات الإسلامية، فامتدت إلى بلاد السند والهند شرقا، وإلى شمال إفريقيا غربا، فاحتاج المسلمون إلى تبليغ دعوتهم، فكانت رحلاتهم الأولى، رحلات رسلهم إلى الملوك والأباطرة، ومن هذه الرحلات التي حفظت لنا أوصافها، رحلتان:

- رحلة الصحابي "تميم الداري" (ت 40 هـ/661م)، التي قام بها إلى بحر الشام، وقد حكى أنه رأى المسيح الدجال في جزيرة مهجورة.[2]

وقد أفرد المقدسي (ت: 765هت/1364م)[3]، كتابا قائما بذاته لرحلة تميم الداري، أسماه (إفحام المُماري بأخبار تميم الدّاري)، يتضح من عنوانه أنه رَدٌّ على من تشككوا في حقيقة رحلته.[4] وتكاد تجمع المصادر على أن تميم الداري هو أول رحالة في الإسلام.[5]

---

[1] سورة قريش، الآية : 1 و2.

[2] تاريخ الأدب الجغرافي العربي، اغناطيوس كراتشوفسكي، ت: صلاح الدين هاشم، ج1، ص 53، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1957م.

[3] الرحلات، شوقي ضيف، ص 15.

[4] المرجع السابق، ج1، ص 54.

[5] فجر الإسلام، أحمد أمين، ص 190 – 191، مصر، 1928م.

- أما الرحلة الثانية، فكانت غايتها إلى القُسطنطينية، وتقترن هذه الرحلة باسم الصحابي"عبادة بن الصامت"، أحد الأنصار من الخزرج، رحل إلى ملك الروم ليدعوه إلى الإسلام، كما زار الرقيم الذي يرقد فيه أهل الكهف[1]، توفي سنة (34 هـ/654م).[2]

إذا، وبعد مجيء الإسلام، انفتحت أمام المسلمين آفاق واسعة كانت من قبل مغلقة، فانتشر الإسلام في رقعة واسعة، ونشأت مراكز للعلم في شتى الأرجاء، فرحل الناس في طلب العلم من مكان إلى آخر، وكان كثير من هؤلاء الرحالة من يهتم بتدوين ما يراه في طريقه، فينقل أخبار البلاد التي يمرّ بها. ثم إن الإسلام فرض الحج على المسلمين فكان ذلك حافزا ودافعا إلى التنقل والتّرحال، وكان بعض الحجاج يسجل مشاهداته، فخرج من ذلك أيضا تراث في أدب الرحلة كبير، أضف إلى ذلك، رحلات الرسل المترددين بين الملوك والأمراء، والساعين في سبيل الرزق وكسب العيش.

كل هذه النماذج من الرحلة عرفها العرب والمسلمون فمنهم من اهتم بتدوين أخبار رحلته وطرق تنقله، فذكر المدن والبلدان، وقيّد مشاهداته عن تجارتها وصناعتها، ووصف حياة السكان وطبائعهم، ومنهم من لم يهتم بذلك، فاكتفى بالمشاهدة والتفرج.

وهكذا وصلتنا أخبار الرحلات التي قام بها العرب، بعضها في مؤلفات مستقلة، سُميّت بالرّحلة، وبعضها الآخر مُدوّن في كتب التاريخ والتراجم والسير.

وقد اختلفت عناية هؤلاء الرحالة واتجاهاتهم، فمنهم من كانت عنايته بأقطار العالم الإسلامي، كابن حوقل في كتابه (المسالك والممالك)[3]، والمقدسي في كتابه (أحسن التقاسيم)[4]. ومنهم من كانت عنايته بإقليم واحد، كابن فضلان في رسالته عن بلاد البلغار[5].

ومنهم من دون رحلته على شكل معجم، ذكر فيه الأخبار والتواريخ والأشعار والمنازل والديار والقرى والأمصار، مبوبة على حروف المعجم، كما فعل عبد الله البكري في كتابه (معجم ما استعجم)[6]، وكذلك ياقوت الحموي في كتابه (معجم البلدان).

---

[1] معجم البلدان، ياقوت الحموي، ج2، ص 706-707، دار صادر، بيروت، 1955م.

[2] كتاب الوفيات، ابن قنفذ القسنطيني، ت: عادل نويهض ، ص 54، المكتب التجاري للطباعة ، بيروت، 1971م.

[3] الرحلات، شوقي ضيف، ص 125.

[4] أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، محمد المقدسي، ص 5، ليدن، 1906م.

[5] تاريخ الرحلة والاستكشاف، ص 27.

[6] معجم ما استعجم، عبد اله البكري، ص 2، مطبعة لجنة التأليف، القاهرة، 1945م.

كما أن هناك من الرحالة من كانت عنايته بطرق الحج ومسالكه[1]، ووصف الأماكن المقدسة، وطريقة أداء فريضة الحج، كما فعل كل من ابن جبير[2]، والحسين الورتلاني[3]، وابن رُشيد السبتي[4].

وقد اعتمد جُلّ هؤلاء الرحّالة في تدوين رحلاتهم على مشاهداتهم الشخصيّة المباشرة، كما فعل ابن حوقل في رحلته، حيث قال: "وأعانني على تأليفه (الكتاب) تواصل السفر، وانزعاجي عن وطني،... إلى أن سلكت وجه الأرض بأجمعه في طولها ..." [5]

على أن بعض الرحالة، لم يكتف بتدوين ما شاهده، بل أضاف إليه ما نقله عن غيره، كما فعل القزويني الذي نقل عن أبي حامد الغرناطي، وعن كثير من الرواة والمؤرخين، وقد ذكر ذلك في مقدمة كتابه فقال : "قد جمعت في هذا الكتاب ما وقع لي وعرفته، وسمعت به وشاهدته من لطائف صنع الله تعالى، وعجائب حكمته ..."[6]

وقد اكتفيت هنا، بذكر بعض الرحالة العرب، ورحلاتهم للتمثيل فقط، لأنه من غير الممكن ذكر جميع الرحالة العرب، لأنهم لا يحصُون كثرة.

وهكذا أصبحت الرّحلة عنصرا قويا في حياة المجتمع الإسلامي، فرحل ناسٌ لزيارة الأماكن المقدسة، ولقوا في سبيل ذلك الكثير من المشاق والصعوبات، ورحل آخرون في طلب العلم، وتحمّلوا مثلما تحمّل غيرهم، ورحل فريق آخر في سبيل الاتجار حيث اتسعت الأسواق الإسلامية، وهناك من دفعه حبّ الاستطلاع إلى الترحال، وليس همّه إلا إشباع فضوله المعرفي بالإضافة إلى الساعين في سبيل الرزق وكسب العيش.

---

[1] معجم البلدان ، ج1، ص 50.

[2] رحلة ابن جبير، ت: مصطفى زيادة، ص 5، دار الكتاب اللبناني، بيروت.

[3] رحلة الورتلاني (نزهة الأنظار في فصل علم التاريخ والأخبار)، ت: محمد بن أبي شنب، ص 141-143، مطبعة بيار فونتانا، الجزائر، 1908م.

[4] أزهار الرياض، أحمد المقري ت: مصطفى السقا، ج2، ص 347-356، مطبعة لجنة التأليف، القاهرة، 1940 م.

[5] صورة الأرض، ان حوقل، ص 3-4، ليدن، 1938م.

[6] آثار البلاد وأخبار العباد، زكريا القزويني، ص 5، دار صادر ، بيروت، 1969م.

الفصل الأول

- الرحلة في المغرب العربي : نشأتها و أهدافها وروادها .

المبحث الأول : مفهوم الرحلة.

المبحث الثاني : الرحلة في المغرب العربي.

1- نشأتها.

2- أسبابها و دوافعها.

3- أنواعها.

4- فوائدها ودواعي تدوينها.

المبحث الثالث : رواد الرحلة في المغرب العربي.

الفصل الأول: الرّحلة في المغرب العربي: نشأتها وأهدافها ورُوّادها.

المبحث الأول: مفهوم الرحلة.

1- الرحلة لغة:

أصل كلمة الرّحلة في اللغة، رحل. والرَّحلُ: مركب للبعير والناقة.

والرَّحلُ: منزلُ الرّجل ومسكنه وبيته، وارتحل البعير رحلة، سار فمضى، ثم جرى ذلك في المنطق حتى قيل: ارتحل القوم عن المكان ارتحالا.

ورحل عن المكان يَرحَلُ، وهو راحل، من قوم رُحّل: انتقل.

قال الشاعر:

رَحَلْتُ مِنْ أَقْصَى بِلادِ الرُّحَّلِ مِنْ قُلَلِ الشِّحْرِ، فَجَنْبِي مَوْجِلِ[1]

أما الرِّحلَةُ[2] : اسم للارتحال والمسير، يقال: دَنَتْ رِحْلَتُنَا.

وقال بعضهم: الرِّحلَة الارتحال ، والرُّحْلَة : الوجه الذي تأخذ فيه وتريده.

والارتحال: الوجه الذي تقصده. يقال رَحَلَ الرجل: إذا سار وقوم رُحَّلُ: أي يرتحلون كثيرا.

ورَجلٌ رَحَّالٌ: عالم بذلك مجيد له، والرَّحيلُ: اسم ارتحال القوم للمسير.

2- الرحلة اصطلاحا:

لم يتواضع الباحثون والدارسون على مفهوم جامع شامل لأدب الرحلة، فالمؤرخون يرونه جزءا من علم التاريخ، والجغرافيون يُدخلونه ضمن علم الجغرافيا، ويذهب دارسو الأدب إلى أنه مصدر من مصادر التأريخ للأدب. فكلٌّ يراه حسب توجّهه واختصاصه. ولعل هذه المفاهيم مجتمعة تُكوِّن المعنى العام لأدب الرّحلة.

أما أدب الرّحلة، فهو فن أصيل من فنون النثر العربي، ظهر ببداية الفتوحات الإسلامية، فاحتاج المسلمون إلى معرفة الطرق المُؤديّة إلى البلاد التي فتحوها لنشر الإسلام، ولقد عرفت الرحلة تطورا ملحوظا في العصر العباسي، بسبب انتشار الترجمة،

---

[1] لسان العرب، ابن منظور الإفريقي، المجلد 11، ص 274-278، دار صادر، بيروت، 1968م.

[2] مختار الصحاح، محمد الرازي، ت: مصطفى البغا، ص 160، دار الهدى، الجزائر/والقاموس المحيط، الفيروز أبادي، ج3، ص 525، دار الكتب العلمية ، لبنان، 1995م.

فأصبحت الرحلة فنّا أدبيّا قائما بذاته، فتسابق الأدباء والعلماء والحُجّاج في تدوين رحلاتهم.

فأدب الرحلة، هو أدب وصفيٌّ، ذو طابع إخباريّ وتسجيليّ، يهتم بجمع أخبار البلاد وأهلها، وتسجيل المشاهد الغريبة والطريفة، كما يهتم أيضا، بوصف النواحي الاجتماعية والثقافية للبلدان والأقطار.

ويتسم أدب الرحلة بسمات تاريخية وجغرافية لاهتمامه بحياة الناس وتقاليدهم، وأنماط عيشهم كما يتميز بمضمونه الفكري والاجتماعي، وأسلوبه الأدبي المتميز غالبا عما سواه.[1]

ويعتبر أدب الرحلة، من أهم المصادر التي تؤرخ للأدب العربي في جميع الأقطار، وهو مفيد لمعرفة تراجم العلماء والأدباء، وسِيَرِ الملوك والأمراء، في مختلف العصور والبلاد. كما تُعتبر الرحلة من أهم الوثائق الجغرافية التي تُعرّف بالمسالك والطرق المؤدية إلى كثير من البلدان.

لذا نستطيع القول أن أدب الرحلة عنوان كبير يجمع تحته العديد من العلوم والفنون، فهو تاريخ وجغرافيا وعلم اجتماع، لما يتعرض له من أخبار البلدان، وأحوال سكانها، وطرق عيشهم. كما هو تاريخ أدب، لما يحويه من تراجم للعلماء والأدباء، ونصوص شعريّة ونثريّة. وهو مصدر دينيّ لاحتوائه على الكثير من المسائل الفقهية والنوازل الشرعية. وهو يدل دلالة واضحة على تفوق العرب في مجال الفن القصصي، لما تحتويه كتب رحلاتهم من قصص وطرائف وغرائب، صيغت صِيَاغة جميلة ورائعة.

المبحث الثاني : الرحلة في المغرب العربي

1- ظهور الرحلة في المغرب العربي:

قبل أن نخوض في الكلام عن نشأة الرحلة في المغرب العربي، لا بأس أن نلقي نظرة خاطفة على الفتح الإسلامي لهذه البلاد، لأنه كان سببا رئيسا في ظهور الرحلات عند المغاربة.

---

[1] اتجاهات الرحالين الجزائريين في الرحلة العربية الحديثة ، عمر بن قينة ص 11، ديوان المطبوعات الجامعية، 1995م.

فبعدما فتح الله على نبيّه – محمد صلى الله عليه وسلم– الجزيرة العربية، وتمّ فتح العراق والشام وفارس على عهد الخليفة أبي بكر الصديق، وفتح مصر وطرابلس الغرب على عهد الخليفة عمر ابن الخطاب، اتّخِذت مصر مركزا لتتبّع الفتح بشمال إفريقيا، فبعث "عمرو بن العاص" – فاتح مصر– بالطلائع تستطلع له أحوال هذه البلاد، فلما تمّ ذلك، سار بنفسه إلى برقة، ففتحها عنوة سنة (22 هـ/643م)[1]. ومن هنا بعث ابن العاص إلى الخليفة عمر يستأذنه في فتح إفريقية (تونس)، فنهاه عمر عن ذلك، وحذره من التمادي في فتح هذه البلاد.

ولما عُيّن "عبد الله بن أبي السرح" عاملا على مصر سنة (25هـ/646م)[2]، فاتح الخليفة عثمان بن عفان في أمر إفريقية، فأذن له في ذلك، فاجتمع له ما يفوق العشرين ألف جنديّ، بالإضافة إلى المدد الذي جاءه من المشرق تحت قيادة عبد الله بن الزُّبير، فدارت معركة كبيرة بين الجيش الإسلامي وجيش الروم بقيادة البطريق جرجير، انهزم فيها الروم شرّ هزيمة، فأصبحت ولاية إفريقية يومئذ تحت النفوذ العربي، لكن ما لبث "عبد الله بن أبي السرح" أن انسحب بجيشه إلى مصر دون أن يُخلِّف نائبا عنه على إفريقية.

وهكذا تأخّر إتمام الفتح إلى أيام معاوية بن أبي سفيان الذي أمر "عقبة بن نافع" بالمسير على رأس جنده إلى إفريقية سنة (50هـ/670م)[3] ففتح بها عدة أماكن، ولقد تُوّجت حملته هذه بالنجاح، حيث أسس مدينة القيروان، حتى تكون مُعسكرا متقدما للمسلمين في إفريقيا، فقام بعمل جليل لم يقم به غيره.

ثم توالت الحملات، حتى بلغت المحيط الأطلسي. ولم تتم السيطرة التامة للمسلمين على شمال إفريقيا، حتى جاءت حملة "حسان بن النعمان" سنة (76 هـ/695م)[4]، بأمر من الخليفة عبد الملك بن مروان، لكنها لم تفعل شيئا يُذكر، لكنه أعاد الكَرّة سنة (81 هـ/ 700م)[5]، فتم له الفتح التام لشمال إفريقيا بالقضاء على الكاهنة وأعوانها سنة (82 هـ)[6].

---

[1] تاريخ الجزائر العام، عبد الرحمن الجيلالي، ج1، ص 161، دار مكتبة الحياة، بيروت، ط2، 1965م.

[2] المرجع نفسه، ج1، ص 163.

[3] المرجع نفسه، ج1، ص 167.

[4] المرجع نفسه، ج1، ص 180.

[5، 6] المرجع نفسه، ج1، ص 183.

فأقبل البربر على اعتناق الإسلام بدون عناء ولا مشقة، لما رأوا في المسلمين الفاتحين من الاستقامة والعدل والمساواة، فتأثر البربر بأخلاق العرب المسلمين وأخذوا يَجِدُّون في تعلّم اللغة العربية، لغة القرآن والدين. واختلط الفاتحون العرب بالبربر وكان من بينهم فقهاء وعلماء[1]،فعملوا على تعليم البربر أمور دينهم، فأُنشئت الكتاتيب لذلك الغرض، كما أن البعثات العلمية التي أرسلها "عمر بن عبد العزيز" كان لها الأثر الحسن في نشر العربية وخدمة الإسلام بين البربر.

وابتداء من النصف الثاني للقرن الثاني للهجرة، توالت إمارات ودول مختلفة على المغرب العربي، فكان أمراء هذه الدول وملوكها على جانب عظيم من العلم والمعرفة، فساهموا إسهاما عظيما في الحياة الثقافية بالمغرب. فانتشرت مجالس العلم والتعليم في المساجد والكتاتيب لمختلف العلوم وأراد المغاربة الاستزادة من العلوم والمعارف، فأخذوا يتجهون إلى المراكز الثقافية والعلمية المشهورة آنذاك بالمشرق العربي، كدمشق وبغداد ومصر والحجاز. وبما أن العلم كان يحصل أساسا بالمشافهة، استوجب ذلك التنقل للارتواء من الأصول، بالإضافة إلى أن الإسلام أوجب على المسلمين أداء فريضة الحج، فانطلق المغاربة يسابقون أشواقهم لزيارة تلك البقاع المقدسة والقيام بالركن الخامس من أركان الإسلام، فانطلق بذلك عهد الرحلات عند المغاربة.

ومن طلائع الرحالين المغاربة إلى المشرق العربي، الأديب الجزائري الكبير "بكر بن حماد التاهرتي" الذي ارتحل إلى القيروان، وأخذ عن صاحب المدونة "سحنون بن سعد"، ودخل بغداد وأخذ عن علمائها، والتقى بأدبائها وشعرائها، وكانت له معهم مساجلات أدبية طريفة. وقد جلس هناك للتدريس، فكان مجلسه حافل بطلبة العلم.[2]

وقد عرف المغرب الأوسط جملة كبيرة من الرحالة في طلب العلم، نذكر من بينهم في

---

[1] كان من بين هؤلاء الفقهاء الصحابيين "سفيان بن وهب" و"عبد الله بن الزبير" (أنظر معالم الإيمان، الدباغ، ج1، ص 126، تونسي، 1330 هـ).

[2] تاريخ الجزائر العام، ج1، ص 241.

الخمسية الهجرية الأولى :

- أبو العباس أحمد الباغائي (345-401 هـ)،كان عالما ومقرئا، وكان لا نظير له في علوم القرآن على مذهب مالك، ارتحل إلى الأندلس، ثم إلى المشرق، وكانت له هناك حظوة.[1]
- أبو جعفر أحمد بن نصر الداودي التلمساني (402-442 هـ)، كان أول من شرح صحيح البخاري في كتاب سماه (النصيحة)، ارتحل إلى طرابلس الغرب، طلبا للعلم، ثم عاد إلى تلمسان[2].
- أبو القاسم بن علي البكري (403-465 هـ)، ارتحل لطلب العلم، فطوّف شرقا وغربا، وقرأ على كثير من العلماء. كان نابغة في علوم اللغة والقرآن حتى قال عنه الإمام ابن الجوزي:"لا أعلم أحدا من هذه الأمة رحل في القراءات رحلته، ولاقى من لَقِي من الشيوخ".كما ألف كتابا في القراءات أسماه "الكامل".[3]
- أبو عبد الله محمد بن علي، المشهور بابن الرمامة (478-567 هـ)، ولد بقلعة بني حماد، وبها تعلم. ارتحل إلى الأندلس طالبا للعلم، فلقي بقرطبة الفيلسوف بن رشد وأخذ عنه، ثم انتقل إلى المغرب الأقصى، فنزل فاس، وبها توفي سنة (567 هـ/1172م)، له تآليف عديدة منها: كتاب (التسهيل المُطلب في تحصيل المذهب).[4]

وهكذا كان علماء المغرب العربي يقومون برحلات كثيرة ولأغراض شتى، فمنهم من دوّن رحلته ومنهم من لم يفعل ذلك. ومن هذه الرّحلات ما كان داخل حدود المغرب العربي، ومنها ما امتد خارجه. ويحدوا هؤلاء العلماء المغاربة إلى القيام برحلاتهم عوامل متنوعة، منها:

- الميل إلى الاستطلاع، واكتشاف المجهول، وهو ميل غذّته تعاليم الإسلام، التي تحثّ على النظر في الكون وتدبر آياته.
- القيام بفريضة الحج وزيارة الأماكن المقدسة.

---

[1] تاريخ الجزائر العام، ج1، ص 360.

[2] المرجع نفسه، ج1، ص 361.

[3] المرجع نفسه، ج1، ص 397.

[4] المرجع نفسه، ج1، ص 400.

- الرغبة في ارتياد مراكز العلم في أنحاء البلاد العربية والإسلامية، للاتصال بكبار العلماء والأخذ عنهم والرواية.

وقد تنوعت رحلات المغاربة، يتنوع دوافعها، وسنترك الحديث بالتفصيل من أسباب الرحلة عند المغاربة ودوافعها في موضع آخر.

وقد كانت مدن المغرب العربي تستقبل بعض الرحالين من المشرق، لكن رحلة المغاربة إلى المشرق كانت أكثر "لأنّ مركز الحج في المشرق، ومدن العلم الأولى فيه، فمن الطبيعي أن يزور المغاربة الشرق أكثر من زيارة المشارقة لبلادهم"[1].

فقد كانت رحلات المغاربة العلمية، تُتيح لهم الاتصال بأعلام المعرفة، ولقاء الشيوخ، فقد قيل: "مذاكرة الرجال تلقح الألباب"[2]. كما كانت الرحلة خير حافز لدعم حركة التصنيف والانتاج الأدبي والعلمي.

2- الرحلة في المغرب العربي دوافعها وأسبابها :

تعددت دوافع الرحلة عند المغاربة، من طلب للعلم، وحجّ لبيت الله الحرام، وحُبّ للاستكشاف والسفارة.لكن يبقى الدافع للرّحلة عند المغاربة سببان رئيسان:

أمّا السّبب الأول،فهو التزامهم أوامر الله تعالى الذي يحثّهم على طلب العلم، فقد جعله واجبا على بعضهم، في قوله تعالى:﴿"فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ، وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ"[3]﴾.

والتزامهم بوصيّة الرسول ﷺ في أن طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، وأن ذلك واجب ديني. فمن واجب كل مسلم أن يطلب المعرفة ، وأن يصل إليها وينالها أيًّا كان مصدرها، ومكان تواجدها، فقد رغّب الرسول – صلى الله عليه وسلم– في الرحلة إلى طلب العلم في قوله "أطلبوا العلم ولو في الصّين".

---

[1] الجغرافيا والرحلات عند العرب، نقولا زيادة، ص 167، دار الكتاب اللبناني ، بيروت، 1962م.

[2] البخلاء، الجاحظ، ت: فوزي عطوي، ص 37، الشركة اللبنانية للكتاب، بيروت، 1969م.

[3] سورة التوبة، الآية : 123.

أما السبب الآخر، فهو أن الله فرض على المسلمين أداء فريضة الحج، وزيارة الأماكن المقدسة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾[1]

فكان المغاربة يتسابقون لأداء الركن الخامس، وكلّهم شوق لزيارة قبر خير المرسلين، والتبرك به، ثم إن هؤلاء المغاربة وفي طريقهم السنوي إلى مكة لأداء الفريضة، كانوا يغتنمون الفرصة فيزورون مراكز الثقافة الإسلامية الواقعة في طريقهم كالقيروان، والجامع الأزهر، فيستفيدون ويُفيدون.

ويُرجع العلّامة عبد الرحمن بن خلدون سبب رحلة المغاربة في طلب العلم، إلى انقطاع سند تعليم العلم عندهم، وفي ذلك يقول ".. فلم يتصل سند التعليم فيهم، فعسُر عليهم حصول الملكة والحدق في العلوم"[2]. فكان المغاربة يرتحلون إلى عواصم الثقافة الإسلامية للاستزادة من العلوم والمعارف التي لا يجدونها إلا هناك.على أن بعض المغاربة كانت رحلتهم في سبيل نشر العلم وتدريسه، لأنهم كانوا قد حصلوا على نتاج معرفيّ كبير في بلادهم، فرحلوا إلى البلاد العربية وقد نضجت عقولهم واكتملت معارفهم، فأقاموا هناك مجالس للعلم والتدريس، فالتف حولهم طلبة كثيرون، ومن أمثال هؤلاء أحمد المقّري، وعبد الرحمن بن خلدون،وبكر بن حمّاد وغيرهم.

3- أنواع الرحلات في المغرب العربي:

قد تنوعت الرحلة عند المغاربة تنوعا كبيرا، منها الرحلة العلميّة، والرحلة الحجازيّة،والرحلة الاستكشافية، والرحلة السِّفارية، وغيرها من أنواع الرحلات التي عُرِفت في المغرب العربي، وسأحاول الحديث عن كل نوع منها بشيء من الإيجاز.

أ – **الرحلة العلمية**: كان طالب العلم في المغرب يُتمّ تعليمه في بلاده، ثم يسافر بعيدا، أو يغترب طويلا، وينزل بإحدى حواضر العالم العربي، ويُجالِس من اشتُهِر بها من علماء

---

[1] سورة الحج، الآية 25.

[2] مقدمة ابن خلدون، ص 773، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1983.

عصره، ويحضر دروسهم، ويسعى في الأخذ عنهم ونيل إجازاتهم[1]، والرّواية عنهم، حِرْصا على الإسناد العالي[2] الذي يصل الطلبة بمؤلفي كتب الحديث واللغة والعلوم.

فكان طالب العلم من المغرب: "يتجاوز الحدود الإقليمية، ويَلْقى التّرحيب حيث يحلّ طالبا للعلم ... جواز مروره وإقامته الانتماء الحضاري؛ الحرف العربي والعقيدة الإسلامية، ولا شَيْءَ يُقلق راحته في هذا القطر أو ذاك"[3].

وقد تكلم ابن خلدون عن الرحلة في طلب العلم، فقال:"الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيدُ كمالٍ في التّعلم ... والسّبب في ذلك أن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما ينتحلون به من المذاهب والفضائل، تارة علما وتعليما وإلقاء، وتارة محاكاة وتلقينا بالمباشرة،إلا أنّ حصول الملكات المباشرة والتلقين، أشدّ استحكاما وأقوى روحا، فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكة ورسوخها"[4].

والرحلة لطلب العلم كانت تقليدا معمولا به في بلاد الإسلام في جميع الأزمنة "فطالب العلم كثيرا ما يكون من كبار العلماء ويسافر لأخذ الإجازة أو لسماع من هو أعلم منه. وقد كان الطلاب والعلماء يشدّون الرّحال خصوصا لرواية الحديث أو لسماع كبار الأئمة من الفقهاء والمحدّثين"[5].

فالرحلة في طلب العلم هي جزء من مُتمّمات التكوين الفكري والعلمي، فالتنقل بين المدن والأقطار والأوطان، يُثري خبرة الطالب، كما أنّ احتكاك الطالب بالشيوخ والعلماء يُكوّن شخصيته العلميّة الخاصّة، زيادة على الاستفادة الكبيرة حين تتنوع منابع المعرفة وتختلف مصادرها.

وقد كان كثير من طلبة العلم المغاربة، أثناء إقامتهم في إحدى البلاد الإسلامية، يُقيّدون ما يحدث، ويُلخّصون ما يرون، كما يُسجّلون طُرُق دراستهم، وما هي الكتب التي

---

[1] الإجازة تشبه الشهادة العلمية في وقتنا، وتكون الإجازة مشافهة، وغذن باللفظ، او الكتابة بحفرة المجاز او مغيبه، وهي رأس مال كبير في العلم، وبفضلها يبقى الإسناد، وتحفظ الشريعة (أنظر الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع" القاضي عياض، ت: أحمد صفر، ص 8، دار التراث ، مصر، 1970).

[2] الإسناد في العلوم، مثل إسناد الحديث النبوي، وهو إيصال سند الحديث من رواته إلى منتهاه وبه تتبين صحة الحديث ويظهر اتصاله (الإلماع، ص 294).

[3] أدب المغرب العربي قديما، عمر بن قينة، ص 25، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر، 1994.

[4] مقدمة بن خلدون، ص 1044.

[5] دور المسلمين في تقدم الجغرافيا الوصفية، اسماعيل العربي، ص 63، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1994م.

يدرسونها، فتصبح هذه المعلومات هيكل كتاب يعرف فيما بعد بالرحلة العلمية، وهذا ما فعله كثير من الرحالة المغاربة نذكر منهم:

- الرحّالة محمد الدرعي الناصري صاحب (الرحلة المراكشية).
- الرحّالة محمد بن رُشيد السبتي (ت: 721 هـ) صاحب رحلة (ملء العيبة).
- الرحّالة محمد بن زاكور الفاسي (ت: 1120هـ) صاحب رحلة (نشر ازهير البستان).

ويرى الشيخ البشير الإبراهيمي أن الاستطاعة شرط من شروط الرحلة في طلب العلم، وفي ذلك يقول: "إن الرحلة في طلب العلم كالرحلة لأداء الحج، كلتاهما مشروطة بالاستطاعة، وإن شرط الاستطاعة في طلب العلم لأَوْكَدُ لأنّ مناسك الحج تُقضَى في أيام، وطلب العلم لا يُقضى إلا في أعوام".[1]

وقد حثّ الإمام الشافعي طالب العلم على التّرحال، مُبينا له فائدة ذلك في أبيات قال فيها:

أمّا في المُقام لذي عقل وذي أدب ... من راحة فَدَعِ الأوطان واغترب
سَافِرْ تَجِد عِوضا عَمّن تُفارقه ... وانْصَب فإنّ لذيذ العيش في التعب
إنّي رأيت وقوف الماء يُفْسده ... إنْ ساح طاب وإن لم يَجْرِ لم يطبِ[2]

ب – الرحلة الحجازية: لقد أمر الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين بالحج إلى بيته العتيق، فتوجه المغاربة إلى الأماكن المقدسة، مُلبّين نداء ربّهم، وأرواحهم وأَخْيلتهم تسبق أجسادهم، وكلّهم شوق إلى بلوغ المكان الذي أُنزل فيه الوحي على سيّد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم، وزيارة قبره والدعاء عنده، فقد قصد كثير من الأدباء والعلماء البقاع المقدسة، وقاموا بأداء فريضتهم، على أنّ بعضهم تجاوز هذا الهدف، فأفضى به الترحال إلى أماكن بعيدة. وقد برع كثير من الحجاج المغاربة في وصف رحيلهم وإقامتهم وطرق سيرهم وطريقة أدائهم لفرائضهم وسجلوا كل ذلك في تقاييد، جمعوها في كتاب أسموه (الرحلة الحجازية) فأصبحت كُتب رحلاتهم دليلا لمن ينوي السفر إلى الأماكن المقدسة.

---

[1] آثار البشير الإبراهيمي، ج4، ص 87، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1985م.

[2] ديوان الشافعي، ت: زهدي يكن، ص 48، دار الثقافة، بيروت، 1961م.

ولعلّ أشهر من يُمثّل هذا النوع من الرحلة عند المغاربة:

- الرحالة محمد العبدري صاحب (الرحلة الحجازية).
- الرحالة خالد بن عيسى البلوي (ت: 737 هـ) صاحب رحلة (تاج المفرق في تحلية علماء المشرق).

ج) **الرحلة الاستكشافية**: الدافع إلى هذا النوع من الرحلات يكون ذا طابع تجاري في كثير من الأحيان، بمعنى أن الرحالة لا يستهدف من وراء تجواله سوى استكشاف الأسواق، لكنه جانبيا يستغل رحلته لأغراض علميّة، فيسجل ما يراه، وما يصادفه من عجائب الأمور وغرائب الأشياء وقد يكون الهدف من هذه الرحلة توسيع نطاق المعلومات عن المعمور من الأرض، أو الحصول على معلومات بشأن منطقة مُعيّنة. وهذا النوع من الرحلات يكون بتكليف من الملك أو الخليفة، وتمويل منه، كالرحلة التي قام بها أبو عبد الله الإدريسي بطلب من ملك صقلية (روجار بن روجار) والتي دوّنها في كتاب أسماه (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق).

د- **الرحلة الاستطلاعية**: هذا النوع من الرحلة يكون بدافع روح المغامرة، وحبّ الاستطلاع، والرّغبة في دراسة أحوال الشعوب ومعرفتها. فقد يخطر لمُحبّ التّجوال والمغامرة أن يرتحل لمدة طويلة، تستغرق أحيانا عدة سنوات، يُدوّن أثناءها الرحالة ما يُعجبه أو ما يُلفت انتباهه، أو يُخالف ما جَرَت العادة عليه في بلاده، ويُضمّن ذلك في كتاب يُسمّيه "الرّحلة".

ولعلّ أبرز الرحالون المغاربة في هذا الصنف، الرحالة "ابن بطوطة الطنجي"، صاحب الرحلة المسماة (تُحفة النظار)، والرحالة الحسن بن الوزان الفاسي، المعروف بليون الإفريقي[1]، صاحب الرحلة المسماة (وصف إفريقيا).

هـ- **الرحلة السفارية**: ظهر هذا النوع من الرحلة في المغرب العربي في القرن العاشر الهجري، فكان السلاطين يُعيّنون بعض المُقرّبين لهم للقيام برحلة إلى البلدان الأجنبية للتفاوض في شأن هُدنةٍ أو تسريحِ أسرى. وكان هؤلاء الرّحالة يُعِدّون تقريرا مفصّلا

---

[1] هو الحسن بن محمد الوزان الزياني الفاسي، ولد حوالي (868هـ/1490م) قام برحلات عديدة أكبرها الرحلة التي قام بها عام (921 هـ/ 1545م) تلك الرحلة التي أفضت به إلى قصر البابا في احضان المسيحية. ألف كتابا وصف فيه رحلته الكبرى أسماه (وصف إفريقيا) استطاع الفكاك من اسره، وقد نبذ المسيحية وعاد إلى دينه الإسلام، المرجح انه توفي سنة (930 هـ/1552م) في تونس. (انظر : تاريخ الرحلة والاستكشاف، اسماعيل العربي، ص 169 وما بعدها).

يذكرون فيه كلّ ما حدث لهم، وكيف كان اللّقاء بهم واستقبالهم ، كما كانوا يُدوّنون بعض ما رأوه وشاهدوه في البلاد التي ذهبوا إليها،وهذا ما فعله الرحّالة "علي التّمقروتي" (ت: 1003 هـ) الذي قام برحلة سفارية إلى استنبول سنة (968 هـ/1580م)،ودوّنها في كتابٍ أسماه "النّفحة المسكيّة في السّفارة التّركية". وما فعله الرّحالة أحمد الغزال (ت: 1191 هـ) الذي قام برحلة سفارية إلى إسبانيا في سبيل تحرير الأسرى المسلمين.

و) **الرحلة الفهرسية**: وهي الرّحلة التي يقتصر فيها مؤلفها على ذكر الرجال الذين لَقِيَهم والشّيوخ الذين قرأ عليهم[1]، والكتب التي درسها، كما كان الرّحالة يُورد في كتابه أسانيده الكثيرة المُتّصلة بأصول الروايات،فالرحلة الفهرسيّة من أهمّ المصادر في تاريخ الأدب العربي، وهي مفيدة جدّا لمعرفة تراجم العلماء والأدباء في مختلف العصور والبلاد العربية. ويمثّل هذا الصنف من الرّحلة، الرّحالة "القاسم بن يوسف التجيبي" الذي عدّد كثيرا من شيوخه في كتاب رحلته الذي أسماه (مُستفاد الرّحلة والاغتراب). والرحالة أبو راس الناصري الذي تحدّث عن شيوخه في رحلته المسمّاة (فتح الإله ومنتّه).

ز) **الرحلة الخيالية**: تكون هذه الرحلة – في الغالب– منظومة شعرا، فقد كان كثير من المغاربة يكتبون رحلات حجازية خيالية، يمدحون فيها الرسول صلى الله عليه وسلم، ويتحدّثون عن الدّيار الشريفة حتى ولو لم يروها، أو كانوا قد زاروها من قبل. فصاحب هذه الرحلة ينتقل رُوحيّا لا جسديّا إلى الأماكن المقدسة، فيصف وصفا حيّا كل شبر من تراب الأماكن المقدسة، وفي هذا الصدد، نَظَمَ "الشيخ عبد الكريم بن الفكون" (ت: 1034 هـ)، الذي زار الحجاز مرارا، ديوانا كاملا في المديح النبوي رتبّه على حروف المعجم.[2]

---

[1] القراءة على الشيخ هي نوع من أنواع الأخذ، أي أخذ الرواية وهي صحيحة، جعلها القاضي عياض، الضرب الخامس من ضروب الأخذ (أنظر الإلماع، ص 70، وما بعدها).

[2] تاريخ الجزائر الثقافي، أبو القاسم سعد الله، ج1، ص 180، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1981م.

4- فوائد الرّحلة ودواعي تدوينها:

يرى الأستاذ "محمد بن تاويت"، أنّ للرّحلة -خاصة في طلب العلم- فائدتين رئيسيتين[1]:

- الفائدة الأولى: ضمان سلامة المنهج العقلي، وذلك عندما يقع تصحيح المتون المرْوِيّة، ووصْلِ أسانيدها بأصحابها، لتَكُون أساسا صالحا للبحث والدّرس وبناء الأحكام عليها.
- الفائدة الثانية: تصحيح منهج التفكير وبناؤه على اثبت القواعد، ومن الأقوال المأثورة (إذا أردت أن تعرف مقدار شيخك فجالس غيره).

ويرى عبد الرحمن بن خلدون أن الرّحلة في طلب العلم تُتيح للطالب "لقاء أهل العلوم وتعدّد المشايخ يُفيده تمييز المصطلحات، بما يراه من اختلاف طرقهم فيها ..."[2] وهي أيضا، تحافظ على اتصال أسانيد العلوم، وصيانة الأمانة العلمية، فكان طالب العلم إذا آنس من نفسه قُدرة علميّة وأراد أن يحاضر عن كتاب غيره، "وجب عليه أن يحصل على إجازة من مؤلف الكتاب، ولم يكن أحد أن يأخذ آراء أساتذته التي ألقاها شفويا في إحدى محاضراته ليُدرّسها لتلاميذه، دون أن يستأذن صاحب الرأي فيها"[3]، فالاستئذان هو بمثابة تصريح بنقل إنتاج علمي أو أدبي.

كما أن الرحلة في طلب العلم والحج، كانت وراء انتشار حركة التأليف والنّسخ واقتناء الكتب، فكان حُجّاج المغرب الأقصى يتركون آثارهم في الجزائر ذاهبين وآيبين. ومن جهة أخرى كانت تونس مَعْبرا ومدرسة للجزائريين، فكانوا يتّصلون بعلمائها ويتبادلون معهم التآليف والإجازات، وهكذا في كل بلد يَمُرّ به الحجاج وطلاب العلم.

فالرحلة كما قال ابن زاكور الفاسي "... مِنّةٌ من الله ونِحلةٌ تُكسبُ الغليظ الطباع غاية الرِّقة والانطباع، وتَعقُبُ من كَابد لها نصبًا، عِلما غزيرا وأدبا"[4]

وقد أجمل الإمام الشافعي فوائد الرحلة، في أبيات قال فيها:

---

[1] ترتيب المدارك، أبو الفضل عياض، ت: محمد بن تاويت، ج1، ص: ب (مقدمة المحقق)، الرباط، المغرب.

[2] مقدمة بن خلدون، ص 1045.

[3] شمس العرب تسطع على الغرب، زيغرد هونكه، ت: فاروق بيضون، ص 398، منشورات المكتب التجاري، بيروت، 1964م.

[4] ينظر: الجزائر من خلال رحلات المغاربة، مولاي بالحميسي، ص 9، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ط2، 1981م.

تغـــرَّبْ عن الأوطـــان في طلب العُلا وسَافِر ففي الأسفـــار خمس فوائـــدِ
تَفَـــرُّجُ هـــمٍّ واكتســـــــابُ معيـــشـــة وعِلـــمٌ وآدابٌ وصُحبـــةُ مـــاجـــدِ
فإن قيـــل في الأسفـــــار هـــمٌّ وكُربة وقَطْـــعُ فيـــافٍ واقتحـــامُ شدائـــــدِ
فمَـــوْتُ الفتـــى خيـــــرٌ لـــه من مقامه بأرض عـــدُوٍّ بين واشٍ وحـــاســـدِ[1]

أما عن دواعي تدوين الرّحلات، فقد كان يدعو الرحالين المغاربة إلى تسجيل رحلاتهم دواع مختلفة:

فمن الرحّالة -وخاصّة الجغرافيين- من كان يحرص على تدوين ملاحظاته ومشاهداته في المناطق التي زارها فيصف عُمرانها وسكانها، ويصف أعمالهم وحِرَفهم وصنائعهم، ويَدْرُس طبائعهم وعاداتهم، فكان هؤلاء الرحالة ذوي حرص شديد على تدوين نتائج استقصائهم وملاحظاتهم الدقيقة عن المنطقة التي زاروها.

ومن الرحالة من كان يزور البقاع المقدسة، فيدوّن ما يراه بواجب اطلاع مواطنيه على أخبار تلك البقاع الشريفة، وتشويقهم إليها، فيجعل المسلمون يشعرون بالحنين إلى تلك البقاع الطاهرة، والتي كانت زيارتها لا تتمّ إلا في ظروف قاسيّة، ولا تتحقّق إلا بعد جهد ومشقّة.

ومن الرّحالة من يدعوه تقديره للعلم وأهله، والرّغبة في إثبات سنده العلمي إلى تصنيف كتاب يجمع فيه تراجم شيوخه، ويذكر الكتب التي أخذها عنهم، ويتحدّث عن سلسلة الأسانيد المتصّلة بشيوخه، فيطلق على كتابه اسم "الرحلة" أو "التَّقْيِيد"، وهناك من يُسمّيه "الفهرست" أو "البرنامج".[2]

ويرى الأستاذ -حسن حسني عبد الوهاب- أن من دواعي تدوين الرحلات- الحجازية خصوصا- وتسجيل أحداثها "تخليد ذكر صاحب الرحلة، ورغبته في هداية مواطنيه، وتعريفهم المسالك التي يقطعها الحجيج، والمخاطر التي ينبغي الحذر منها في الطريق"[3].

---

[1] ينظر: رحلة القلصادي، ت: محمد أبو الأجفان، ص 38، الشركة التونسية للتوزيع، 1978م (لقد بحثت عن هذه الأبيات في ديوان الشافعي، فلم أعثر عليها، فربما تكون مما نُسب إلى الشافعي من الشعر).

[2] فهرس الفهارس، عبد الحي الكتاني، ت: إحسان عباس، ج1، ، ص 38، دار الغرب الاسلامي ، ط2، 1982م.

[3] رحلة التجاني، ت: حسن حسني عبد الوهاب، ص 4 (مقدمة المحقق)، المطبعة الرستمية، تونس، 1958م.

فقد كان الرّحالة المغاربة يسجلّون انطباعاتهم كلٌّ حسب تكوينه، فمنهم من غلب على كتاباته الطّابع الدّيني، ومنهم من اهتمّ بالعلم ورجاله، ومنهم من تحدّث عن المدن ووصف المسالك، ولكنّ أعمالهم جميعا أصبحت لا غنى عنها في دراسات المؤرّخين والجغرافيين وعلماء الاجتماع ومؤرخيّ الأدب.

المبحث الثالث: رواد الرحلة في المغرب العربي

لقد كَثُرَ الرّحالون في المغرب العربي، حتى أصبح من المستحيل عدّهم لكثرتهم، منهم من اهتمّ بتدوين رحلته في كتاب مستقّل، ومنهم من سجلّها ضمن مؤلفاته المختلفة. وسأقتصر هنا على ذكر بعض الرّحالة المغاربة الذين اهتمّوا بتدوين رحلاتهم ثمّ أتحدّث بشيء من التّفصيل عن الرّحالة الجزائريّين للتّعريف بهم أكثر وبرحلاتهم. وهنا ذكر بعض الرّحالة المغاربة مُرتبّين ترتيبا زمنيا:

1. أبو عبد الله محمد الإدريسي (493-569هـ).

هو أبو عبد الله محمد الشريف الإدريسي العلوي الحمودي[1]،أكبر جُغرافيّ بلاد المغرب والأندلس، ولد في سبتة سنة (493 هـ/1099م)[2]. تعلّم في قرطبة، ثم تنقّل في كثير من البلاد، في الأندلس، والمغرب، مصر، والشام،وآسيا الصغرى.وانتهى به المطاف في صقلية وقد ألّف في ذلك كتابا أسماه (نزهة المشتاق في معرفة الآفاق).

وقد زوّد الإدريسي كتابه هذا بأكثر من سبعين مُصوّرًا، يصف فيه العالم الإسلامي، كما يضمّ وصفا دقيقا للعالم المسيحي، وقد انتهى من تأليفه سنة (547هـ). توفّي الإدريسي سنة (569 هـ)[3].

2. أبو يعقوب يوسف الورجلاني (500 هـ- ؟)[4]

هو العلامة أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم الورجلاني، ولد بمدينة ورقلة سنة (500هـ)، أخذ العلم ببلده، ثم ارتحل إلى الأندلس طلبا للعلم، فدخل قرطبة و برز هناك، حتى كان الأندلسيّون - مع حداثة سنّه- يُشبّهونه بالجاحظ، ثم عاد إلى وطنه وجدّد منه

---

[1] مقدمة بن خلدون، ص 91.

[2] دائرة معارف القرن 20، محمد وجدي، ج1، ص 120، دار المعرفة، بيروت، ط3، 1971م.

[3] النبوغ المغربي في الأدب العربي، عبد الله كنون، ج1، ص 88، بيروت، ط2 1961م.

[4] تاريخ الجزائر العام، ج1، ص 416.

الرحلة إلى المشرق فدخل عواصمه العلمية. وقد أكثر الرحلة في سبيل العلم فتوغل في أواسط إفريقيا. ولما عاد من رحلته لازم داره بورقلة، مُنكبًّا على الدرس والتأليف مُكرّسا حياته لخدمة العلم، تاركا تآليف عديدة منها تفسير القرآن يقع في سبعين جزءا، وله قصيدة حجازية ذكر فيها رحلته العلمية.

3. القاسم بن يوسف التّجيبي: (670-730 هـ)[1]

هو القاسم بن يوسف بن محمد بن علي التّجيبي السّبتي، ولد في حدود سنة (670 هـ/1271 م). قام برحلة حجازية التقى فيها بعدة شيوخ، وقرأ عليهم، وأجازه بعضهم، سجّل كل ذلك في كتاب أسماه (مستفاد الرّحلة والاغتراب)،وسجّل فيه أيضا طريق رحلته إلى البقاع المقدسة، ووصف فيه مناسك الحج، كما عدّد فيه شيوخه الذين لقيهم، وتحدّث عن مروياتهم، وهذه الرّحلة تنقسم إلى ثلاث أقسام، ضاع منها القسمان الأول والثالث، ويبدو أن القسم الأوّل تضمّن خروجه من سبتة إلى مصر، لأنه بدأ القسم الثاني – وهو المُحقّق– بالحديث مباشرة عن زيارته لمصر. وقد يكون القسم الثالث مُتضمّنا جزءا من بقية أخبار الحجاز والشام ثمّ العودة إلى الوطن.

4. أبو محمد عبد الله التّجاني (670 أو 675-718 هـ).

هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد التّجاني، وُلد في تونس، ونشأ في بيت علم ومعرفة، فقد كان أبوه وجدّه من أهل العلم والأدب والفقه. بدأت رحلة التجاني حين خروجه من تونس برفقة ابن اللّحياني (ت: 727 هـ)[2]،فوصل طرابلس وأقام بها مدة عامين ثم عاد إلى تونس في سنة (708 هـ).فاقتصرت رحلته على طرابلس ثم العودة. وقد قُتل التّجاني مع أفراد أسرته سنة (718 هـ/1318م)[3].

للتجاني مؤلفات عديدة في الفقه والأدب والتاريخ والتراجم، وله مراسلات مع العلامة "ابن شبرين". وقد دوّن التّجاني كل ما رآه وشاهده أثناء رحلته في تونس وطرابلس بلُغة أنيقة وأسلوب جليّ. وقد اهتم في تدوين رحلته بالتاريخ وتراجم أهل الأدب، كما أضاف

---

[1] مستفاد الرحلة والاغتراب، القاسم التجيبي، ت: عبد الحفيظ منصور، ص: ج (مقدمة المحقق) الدار العربية للكتاب ، تونس.

[2] هو السلطان زكرياء بن احمد بن يحي بن عمر اللحياني الهنتاني، صاحب تونس، ملك سنة 670 هـ، لقب بالقائم بأمر الله، توفي سنة 727 هت (أنظر درة الحجال في أسماء الرجال، احمد بن القاضي، ت: محمد أبو النور، ج1، ص 277، دار التراث، القاهرة، 1970م).

[3] رحلة التجاني، ص 393.

إلى رحلته ردوده على الرسائل الشّعرية والنّثرية التي كانت تصله من ابن شبرين وغيره من العلماء.[1]

5. أبو عبد الله محمد العبدري (توفّي سنة 725 هـ)

هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن علي الحيحي المعروف العبدري نسبة إلى بني عبد الدار، وُلد في حاحة بالمغرب الأقصى في تاريخ غير معروف.بدأ رحلته سنة (688 هـ/1289م) عبر شمال إفريقيا بقصد الحج، مارا بالسُّوس الأوسط، ثم هبط تلمسان والجزائر وبجاية وقسنطينة وتونس، ثم سار بعد ذلك مجتازا ليبيا وصولا إلى الاسكندرية، واتّبع طريقا بَرِيّا من الإسكندرية إلى مكّة،وبعد أن أتمّ حُجّه، عاد أدراجه مارّا بفلسطين إلى القاهرة برّا، ثم تابع طريقه الذي جاء منه.سجّل العبدري كل ما رآه، في كتاب أسماه (الرّحلة المغربيّة).[2] وقد خلّف لنا هذا الرحالة أخبارا هامة عن المغرب العربي في عصره، ومُدنه وعُلمائه، لكنّه لم يلتزم الموضوعية في وصفه،خصوصا حين يتحدّث عن مُدن الجزائر.

6. محمد بن بطوطة (703-779 هـ)[3]

هو شيخ الرحالة ، محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللُّواتي الطنجي، المشهور بابن بطوطة ولد في طنجة سنة (703هـ/1304م).

بدأ رحلته سنة (725 هـ/1325م) فخرج من طنجة في طريقه إلى الحج، وسلك إلى الاسكندرية طريقًا يمرّ بالمدن الساحلية لشمال إفريقيا، ولما وصل إلى القاهرة توجّه إلى فلسطين، ومنها عاد إلى مكّة المكرمة فأدّى فريضة الحج سنة (726 هـ)،ومن مكة اتّجه إلى العراق ثم بلاد العجم،قبل أن يقوم بحجته الثانية سنة (727 هـ).وبعد أن جاور بمكة مدّة سنتين سافر في رحلة ثالثة سنة (729 هـ) من جدّة إلى إفريقيا الشرقية، ثم عاد إلى الحجاز فقام بحجة ثالثة.

وبعد ذلك انطلق ابن بطوطة نحو آسيا الصغرى وبلاد القرم، ثم ركب البحر الأسود إلى جنوب روسيا فأقام في خوارزم وسمرقند، ثم اتّجه إلى بلاد الهند، فأقام فيها

---

[1] المصدر السابق، ص 164-165و 170.

[2] رحلة العبدري (الرحلة المغربية)، ت: محمد الفاسي، ص 2-3 (المقدمة)، الرباط ، 1968م.

[3] رحلة ابن بطوطة، تقديم: كرم البناني، دار صادر، بيروت، 1964م.

سنتين حيث شغل منصب القاضي، ثم سافر إلى جزر المالديف حيث وُلّيَ القضاء مدّة عام ونصف، ثم سافر إلى الصّين.

عاد ابن بطوطة إلى الحجاز في محرم سنة (748 هـ)، وبعد رحلة في مصر والشام، قام بحجّته الرابعة، ثم عاد إلى بلده مارّا ببلدان الشمال الإفريقي، ودخل فاس سنة (750 هـ) فكانت مدة رحلته الأولى 24 سنة، وبعد أن أقام مدّة بفاس قام برحلة أخرى إلى الأندلس ثم عاد إلى بلاده لينطلق من جديد إلى بلاد السودان (إفريقيا الغربية)،فوصل إلى نهر النيجر، ثم عاد إلى فاس وألقى عصا التّرحال نهائيا. ولم يقم ابن بطوطة بكتابة رحلته بنفسه،بل أملاها على كاتب السلطان ابن جُزيّ[1]. وقد أسماها (تُحفة النُظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار). تُوفيّ ابن بطوطة سنة (779 هـ).

7. أبو عبد الله محمد ابن رشيد السبتي (ت: 721 هـ)

هو أبو عبد الله محمد بن عمر المعروف بابن رُشيد السبتي،تاريخ ميلاده غير معروف توفي بفاس سنة (721 هـ). له الرحلة الكبرى في ستّ مجلدات سمّاها (ملء العيبة بما جُمِعَ في طول الغيبة في الوجهة الوجيهيّة بمصر والشام ومكة وطيبة)[2]. فيها فنون ودروب من الفوائد العلمية والتاريخ وطُرفٌ من أخبار حسان[3]. وهي في أربعة أسفار أوْدع فيها ذكر أشياخه، وجمع فيها من الفوائد الحديثيّة والأدبيّة كل عجيبة وغريبة.[4]

8. أبو الحسن علي التّمقروتي (972-1003هـ)[5]

هو أبو الحسن علي بن محمد بن علي التمقروتي، نسبة إلى قرية تمقروت بوادي درعة بالمغرب الأقصى ولد حوالي (972 هـ). كلّفه السلطان السعدي "أحمد المنصور"[6] بسفارة إلى استنبول سنة (999 هـ)، فخرج من مراكش ونزل بتطوان، ثم أبحر مارا

---

[1] هو محمد ابن جزي الكلبي ، أديب أصله من غرناطة، ولد سنة (720هـ) كان كاتبا للسلطان أبي عنان المريني، الف عدة كتب في الفقه من بينها كتاب (قوانين ابن جزي) (أنظر تاريخ الرحلة والاستكشاف، اسماعيل العربي، ص 57).

[2] فهرس الفهارس، الكتاني، ج1، ص 443.

[3] الإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدين بن الخطيب، ج2، ص 135، مطبعة الموسوعات، القاهرة ، 1319هـ.

[4] أزهار الرياض، احمد المقري، ت: مصطفى السقا، ج2، ص 347، مطبعة لجنة التأليف القاهرة، 1940 م.

[5] ينظر: الجزائر من خلال رحلات المغاربة، ص 16-17.

[6] هو السلطان أبو العباس أحمد المنصور بن محمد المهدي بن عبد الرحمن بن زيدان، المعروف بالذهبي، ولد سنة (956 هـ) وبويع بالخلافة على المغرب الأقصى سنة (986 هـ) (أنظر : دّرة الحجال ، ج1، ص 106).

ببعض المدن الساحلية الجزائرية وصولا إلى القُسطنْطِينيّة. عاد التّمقروتي إلى تطوان في سنة (1001 هـ/1591 م)، وتُوفيّ بعد ذلك بعامين سنة (1003 هـ/1594م). وقد سجل التّمقروتي ملاحظاته وانطباعاته في كتاب أسماه (النّفحة المسكيّة في السّفارة التّركيّة)، ولقد عُني التّمقروتي في رحلته عناية خاصة بأخبار العلماء، وقد ذكر المشهورين منهم. وقد حَظِيت الجزائر بعناية خاصّة من قِبَل التّمقروتي، لأنّه أقام بها مُدّة مكّنته من أن يعرفها ويُعْجب بها.

9. عبد الله العياشي (1037-1090 هـ):

هو أبو سليم عبد الله بن محمد بن أبي بكر العياشي المالكي، وُلد بقبيلة آيت أعياشي قرب تافلالت في شعبان سنة (1037 هـ/1628م)[1].

تلقّى دراسته الأولى في زاوية أبيه، انتقل إلى المشرق طلبا للعلم المرة الأولى سنة (1059 هـ/1649م)، والمرة الثانية (1064 هـ/1653م)، والمرة الثالثة سنة (1073 هـ/ 1661م)، وتُوفيّ العياشي سنة (1090هـ/1675م) بالمغرب الأقصى.

كان العياشي مُحدّثا وصُوفيّا، وعالما، وشاعرا، له تآليف عديدة منها كتاب في التراجم أسماه (اقتفاء الآثار بعد ذهاب أهل الآثار)، إلا أن العياشي اشتُهر برحلته التي أسماها (ماء الموائد)، وهي رحلة ضخمة في جزأين ضمّنها أخبارا وحوادث شاهدها أو سمعها أثناء أسفاره، وأهمّ ما فيها وصْف طريق الصحراء والسكان والعوائد وأحوال المعاش، والحديث عن العلماء وأتعاب المسافرين، وقد خصّص العياشي صفحات عديدة في الجزئين من كتابه للجنوب الجزائري ولمدنه وعلمائه.[2]

10. أحمد الساسي البوني (1063 -1189هـ)

هو أبو العباس أحمد بن قاسم بن محمد ساسي التّميمي البُوني، ولد بعنابة سنة (1063 هـ)، وتوفي بها سنة (1189هـ)[3]. من مؤلفاته (فتح الباري في شرح صحيح البخاري) و(النّفحة العنبريّة بنظم السّيرة الطبريّة)، و(التّعريف بما للفقير من التّواليف). له

---

[1] فتح الإله ومنته، أبوراس الناصري، ت: محمد بن عبد الكريم، ص 91، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990م.

[2] الرحلة العياشية، ماء الموائد، ج1 وج2، فاس ، 1316 هـ.

[3] فهرس الفهارس، الكتاني، ج1، ص 236 إلى 239.

رحلة حجازيّة سمّاها (الرّوضة الشّهيّة في الرّحلة الحجازيّة)[1] ذكر فيها شيوخه وترجم لهم، وهي مفقودة.

11. ابن زاكور الفاسي (1075 –1120هـ)

هو أبو عبد الله محمد بن القاسم بن محمد بن زاكور الفاسي، أديب ورحالة وشاعر، ولد بفاس سنة (1075 هـ)، وتوفي بها سنة (1120هـ). تعلّم بفاس ثم انتقل إلى مدينة تطوان، وأخذ عن علمائها. ثمّ قَدِمَ إلى الجزائر بحرا سنة (1093 هت/1683م)، فأخذ عن عدد من علمائها وأجازه بعضهم، ثم عاد بعد ذلك إلى تطوان. وقد دوّن ابن زاكور الفاسي رحلة قصيرة أسماها (نشْر أزاهير البُستان في من أجازني بالجزائر وتطوان) وقد "ألقت هذه الرحلة أضواء على التّعاون الثقافي بين المغربين الأقصى والأوسط، وأضافت حلقة جديدة إلى سلسلة الروابط الجديدة التي تشدّهما شدّا وثيقا"[2]. وتنقسم الرّحلة إلى قسمين، القسم الأول تكلّم فيه ابن زاكور عن الجزائر وعلمائها وطرق التدريس بها، والقسم الثاني تحدّث فيه عن تطوان وعلمائها.

12. ابن حمادوش الجزائري (1107 هـ)

هو عبد الرزاق بن محمد بن محمد، المعروف بابن حمادوش الجزائري، ولد في مدينة الجزائر سنة (1107 هـ/1695 م). درس العلوم اللغوية والشرعية وكان له اهتمام واضح بالعلوم الرياضية والطبية.

لابن حمادوش رحلة بدأها بالتوجه إلى الحجاز لقضاء فريضة الحج، ثم اتّجه إلى المغرب الأقصى فأقام هناك مدة، التقى فيها بكثير من العلماء. وقد ألّف ابن حمادوش كتابا ذكر فيه بعض ما شاهده في رحلته، وجعله في عدة أجزاء، ولم يُعثَر إلا على الجزء الثاني منه، المسمّى (لسان المقال، في النبأ عن النسب والحسب والحال)[3]. والملاحظ أن كلمة الرحلة لا تُطلق إلا على الجزء الخاصّ برحلته إلى المغرب الأقصى، من الصفحة 30 إلى ص 114، وهو ما يُمْكن تسميّته بالرّحلة المغربيّة، وقد أورد ابن حمادوش بعضا من شعره في رحلته، لكنّه ضعيف، كما أورد بعض مقاماته، ونظنّها أجود من شعره.

---

[1] أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، أبو القاسم سعد الله ،ج1، ص 179–180، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م.

[2] نشر أزاهير البستان، ابن زاكور الفاسي، ت: عبد الوهاب بن منصور، ص 4 (مقدمة المحقق) ، الرباط ، 1967م.

[3] رحلة ابن حمادوش،ت: أبو القاسم سعد الله، ص 13–ص226، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر، 1983م.

13. الحسين الورتلاني (1125-1193هـ).

هو الشيخ الحسين بن محمد السعيد الورتلاني، نسبة إلى قرية بني ورتلان قرب بجاية، ينتمي إلى أسرة اشتهرت بالعلم والتدريس. ولد الورتلاني سنة (1125هـ/1713 م) في ورتلان،وبها نشأ وتعلم، ثم ارتحل بعد ذلك إلى المشرق لطلب العلم وأداء فريضة الحج، فعقد الصّلة مع كثير من العلماء في تونس ومصر والحجاز،وقد بلغ شأنا كبيرا في الفقه والتّوحيد والنّحو والبلاغة والتصوّف.[1]

وقد حجّ الورتلاني ثلاث مرات، كانت الأولى سنة (1153 هـ)، والثانية سنة (1166هـ)، والثالثة سنة (1179 هـ)، ورحلته الأخيرة هي التي حملته على كتابة رحلته التي أسماها (نُزهة الأنظار في فَضْل عِلْم التّاريخ والأخبار)، وقد عُرفت باسم (الرّحلة الورتلانية).[2]

ذكر الورتلاني أن الهدف من تسجيل رحلته، ملء الفراغ الذي كان يسود منطقة المغرب الأوسط، من حيث انعدام المُؤلّفات، بالإضافة إلى أنّه وضع تراجم لعدد من العلماء والأولياء ليتعرّف القُرّاء عليهم، وفي ذلك يقول".... لمّا رأينا من وقوع الإهمال في تلك التّراجم في وطننا، فرسمنا كلّ ذلك رسما جيّدا، فحَفِظْتُ من كلّ خَلَفٍ وَصْف أسلافه، ونَقَلْتُ من كلّ فَرْع أخبار أَصْله ...".[3]

أما محتوى رحلة الورتلاني، فقد جمع فيها بين علوم شتّى، التّوحيد والفقه والتّفسير، والنّحو والبلاغة، والحكايات الغريبة من كرامات الأولياء والصالحين. وفيها مادة غزيرة للجغرافيا والتاريخ. كما تحتوي رحلته على معلومات هامة عن الأحوال الاجتماعيّة والسياسيّة والثقافيّة في أجزاء من الوطن العربي في عصره.

كما ضَمّن الورتلاني رحلته مجموعة من القصائد في شتّى الفنون، من نظمه ومن نظم غيره[4]، وقد ركّز الكلام في رحلته حول الأوضاع السياسية في الجزائر وتونس آنذاك، ووصفها بالفوضى والإهمال.[5]

---

[1] تعريف الخلف برجال السلف، محمد الحفناوي، ج1، ص 397-407، موقم للنشر، الجزائر، 1999م.

[2] رحلة الورتلاني، ت: محمد بن أبي شنب، ص 603-655، مطبعة بيرفونتانا، الجزائر، 1908.

[3] المصدر نفسه، ص 141-144-290.

[4] المصدر نفسه، ص 48- 65-209-211.

[5] المصدر نفسه، ص 8-11-28 وص 127-128.

14. أبوراس الجزائري (1146 هـ- ؟):

هو محمد بن أحمد بن عبد القادر بن محمد بن أحمد بن النّاصر بن علي بن عبد العظيم بن عبد الجليل المعسكري. المعروف بأبي راس الناصري[1]. وُلد حوالي سنة (1146 هـ/1733م)، قُرْب جبل كرسوط بالغرب الجزائري[2]. فَقَدَ أبو راس وَالدَيه وهو صغير ، فكفله أخوه الكبير، ابن عمر، وأخذه معه إلى المغرب الأقصى حيث حَفِظ أبو راس القرآن الكريم وأحكامه،ثم عاد إلى معسكر فالتقى هناك بالشيخ عبد القادر المشرفي[3]، الذي كانت شهرته العلمية واسعة آنذاك، فتتلمذ عليه. ولما آنس أبو راس من نفسه استقلالا علميّا خرج إلى جوار معسكر،واشتغل بالتّدريس وتولّى القضاء، وبَقِيَ على ذلك مُدّة 36 عاما حتّى اشتُهِر أمره بين الناس في كلّ أقطار المغرب العربي، و ذاع صيته في المشرق أيضا، فأصبح مجلس درسه يجمع أحيانا أكثر من 800 طالب.وفي سنة (1204 هـ) خرج أبو راس للحج، والتقى في طريقه بعلماء من الجزائر وقسنطينة وتونس ومصر والشام والحرمين. وعند عودة أبي راس إلى بلده، بدأ تأليف كتابه (عجائب الأسفار ولطائف الأخبار) الذي ضمنه أخبارا من رحلته الأولى إلى الحج.

وفي سنة (1211هـ)، توجّه أبو راس إلى المغرب الأقصى، واشتُهر أمره بفاس، ولقّبه علماؤها بالحافظ. وبعد قضاءه مدة خمس سنوات هناك،قرر التوجه مرة أخرى إلى الحجاز للحج.

وقد ألف أبو راس كُتبا كثيرة في التّاريخ والأدب والتّراجم، وهي تزيد على الخمسين مُؤلّفا، ذكر بعضها في كتابه (فتح الإله ومنته)، منها:[4]

- زهرة الشّماريخ في علم التاريخ.
- دُرُّ السّحابة فيمن دخل المغرب من الصّحابة.
- الحُلل السّندسية في شأن وهران والجزيرة الأندلسية.(قصيدة تاريخية).
- ذيلُ القِرْطاس في ملوك بني وطاس.

---

[1] فتح الإله ومنته، أبو راس الجزائري، ص 25.

[2] المصدر نفسه، ص 18-19.

[3] هو ابو المكارم عبد القادر بن عبد الله بن محمد المشرفي الغريسي، توفي سنة (1192هـ/1778م) (أنظر فتح الإله ومنته، ص 34، الهامش).

[4] فتح الإله ومنته، ص 179 وما بعدها.

- العِزُّ المتين في ذكر ملوك بني مرين.
- فتحُ الإلهِ ومِنّته في التّحدّث بفضل ربّي ونعمته (ترجمة ذاتية ورحلة).
- عجائبُ الأسفار ولطائفُ الأخبار (تاريخ ورحلة).

والمؤلّفان الأخيران :(فتحُ الإله،وعجائب الأسفار) سجّل فيهما أبو راس رحلاته شرقا وغربا، وسنذكر بعض ما جاء فيهما.

فكُتُب أبو راس كثيرة، بعضها موجود وأغلبها مفقود. والموجود منها ما يزال مخطوطا "... فأبو راس يُعتبر من أهمّ المؤلفين في الجزائر العثمانية، وإنّ تنوّع كُتبه يدلُّ على تنوّع ثقافته وغزارة مادته، فلقد كتب في التّفسير والتّوحيد والتّصوف والنّحو والبلاغة، وله قصائد في أغراض شتى أهمّها في التاريخ والمدح"[1].

فكتاب (عجائب الأسفار ولطائف الأخبار) هو الكتاب الذي اشتُهر به أبو راس لدى الباحثين، وأصل هذا الكتاب قصيدة تاريخيّة نظمها أبو راس بمناسبة فتح وهران على يد الباي محمد بن عثمان الملقب بالكبير[2]، وسماها (نفيسة الجمان في فتح ثغر وهران على يد المنصور بالله الباي سيدي محمد بن عثمان). وقد شرحها بطلب من الباي المذكور في كتابه (عجائب الأسفار)[3].

وقصيدة أبو راس مطلعها:

طَيِّبَ الرِّياح جميعَ أرض الله جُسّـــي ... وبَشّري البُكْم مع الجِـــنّ والإنـــسِ
بمَغـــرب الأرض هُبّـــي ومَشْرقـــها ... جَـــوْفا وقِبلة والأنْجُـــم الخَمْـــس
(طمـــى) الأبحـــر وأهل جزائرهـــا ... بفتح وهـــران دار الشّرك والوَمْس
وحَدِّثيـــهم بوَيْـــلاتٍ لنـــا سَلَفَـــتْ ... فطـــال مـــا رَمَـــتِ الإسلام بالتّعس[4]

وقد ذكر أبو راس أنه ألف كتابه (عجائب الأسفار) حتّى يشرح ما جاء في القصيدة من إشارات تاريخية وأخبار ووقائع.[5] والكتاب في جزئين، يخضع لتقسيم الأفكار أو

---

[1] أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر ، ص 93.

[2] هو محمد بن عثمان الكردي، تم تعيينه بايا على الغرب الجزائري سنة 1192 هـ.

[3] (تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص 359) و(أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ص 94 إلى 99).

[4] عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، أبو راس الجزائري، ج1، ص 9، مخطوط المكتبة الوطنية الجزائرية ، رقم 1633.

[5] المصدر نفسه، ج1، ص 8.

الموضوعات التي يُعبّر عليها كل بيت من أبيات القصيدة. وقدم أبو راس لكتابه بمقدمة تحدث فيها عن قيمة علم التاريخ، كما تحدّث عن الدافع إلى التأليف، يقول في بداية المقدمة: "الحمد لله الذي راض لنا البيان والأدب حتى انقاد في ألسنتنا، وشاد مثواه في أجنّتنا، وذلّل لنا متن الفصاحة حتى ملكناه، وأوضح لنا من مشكلاته ما تشعّب فَسَلكْناه، وصار لنا الكلام عبدا يُجيب متى ناديناه، وسهما يُصيب الغرض إذا ما رميناه، والصّلاة والسّلام على سيّدنا محمد الذي اصطفاه الله على سائر الخلق واجتباه، وعلى آله وأصحابه صفوة الله من خليقته أهل عنايته ورُحماه ..."[1].

وكتاب (عجائب الأسفار) ينقسم إلى جزئين :

الجزء الأول: تناول فيه أخبار المغرب العربي، وأنساب الأولين وأخبارهم.

الجزء الثاني: تعرّض فيه لأخبار المغرب الأوسط والأقصى، وجاء ببعض أخبار بلاد السودان، وتحدث عن تاريخ تلمسان، كما ألم بأخبار رحلته الأولى للحج، ووصف الأماكن التي تنقل فيها.

وطريقة أبي راس في تأليفه (عجائب الأسفار)، أنه يُورد البيت الذي يحتوي على الفكرة الأساسية، ثم يشرع في تفسير ألفاظه لُغويّا وأدبيّا، ثم يشرحه تاريخيّا، ويستشهد عن كل فكرة بالآيات القرآنية والأحاديث النبويّة والطرائف والأخبار. وطريقته هذه تشبه إلى حد كبير طريقة أبي عبد الله بن مرزوق في شرح قصيدة البردة، وأسلوب أبوراس في كتاب (العجائب) بسيط، لم يلتزم فيه السّجع إلا في المقدمة.

فكتاب (عجائب الأسفار)، ذو قيمة بارزة، إذ أنّه يحتوي على معلومات هامة عن القبائل في المغرب العربي وأنسابها ومواقعها. وفيه أيضا أخبارا عن حياة أبي راس الشخصية وأخبارا عن رحلته الأولى للحج (1204 هـ) فهو كتاب جدير بالدراسة والتحقيق.

أما كتاب (فتح الإله ومنته)، فقد ذكر فيه أبوراس جزءا كبيرا من رحلته، كما ترجم فيه لنفسه ولشيوخه ترجمة وافية، وذكر أنه تأثر في تأليفه بالإمام عبد الرحمن السيوطي ولسان الدين بن الخطيب.[2]

---

[1] المصدر السابق، ج1، ص 2.

[2] فتح الإله ومنته، ص 16.

وقد دبّج أبوراس لكتاب رحلته بمقدمة رائعة، قال فيها: " ... إنّ العلم من افضل نفائس الأعلاق، وأرفع الأشياء على الإطلاق، فكان أحقّ ما رُمِقَ بالأحْدَاقِ وصُرفت له هِمَمُ الحُدَّاق، ورنّت له ذواتُ الأطواق ... وإنّي قد عزمت على تأليف عظيم الجدوى، بليغ الفحوى، يحتوي على أبواب وأسئلة وفتوى"[1].

وقد قسّم أبو راس كتاب رحلته إلى خمسة أبواب ، تحدّث في الباب الأول عن ابتداء أمره، وتحدّث في الباب الثاني عن شيوخه، وتحدّث في الباب الثالث عن رحلته إلى المشرق وغيره، وتناول في الباب الرابع المناظرات التي جرت له مع بعض العلماء، كما ذكر الأسئلة التي وردت عليه، وإجاباته عليها، وقد ذكر في الباب الخامس تأليفه في كل فن.[2]

15. أبو القاسم الزياني (1197 -1249 هـ)[3]

هو أبو القاسم بن أحمد بن علي الزيّاني، رحّالة وأديب ووزير، ولد بفاس سنة (1147 هـ/1734م) ، وتعلم بها.

رافق الزياني والديه لأداء فريضة الحج ودام غيابه مدة عامين، وفي طريق العودة مرّ بمدينة ليفورن بإيطاليا حيث مكث أربعة أشهر، ثمّ إلى المغرب. عُيّن الزياني كاتبا بقصر السلطان عبد الله، فأوكل إليه مُهمّة السّفارة إلى تركيا، فخرج الزياني إلى استنبول سنة (1200 هـ/1786 م) مارًّا بمالقة وتونس، ولما وصل إلى تركيا أقام بها ثلاثة أشهر ثم عاد إلى وطنه.

ولما كثُرت الفِتن في المغرب الأقصى، لجأ إلى المغرب الأوسط (الجزائر)، ونزل ضيفا على الباي محمد الكبير بوهران، ثم التحق بتلمسان وقضى مدة طويلة بين علمائها، ثم قصد الجزائر فأكرمه أهلها، ثم انطلق الزياني مرّة أخرى إلى استنبول في زيارة، ثم عاد بعد ذلك إلى الجزائر، وأراد الزياني أن يستقر نهائيا بتلمسان غير أن ظروفا أرغمته على الرجوع إلى بلده.

---

[1] فتح الإله ومنته، ص 15.

[2] المصدر نفسه، من ص 18 إلى ص 184.

[3] الجزائر من خلال رحلات المغاربة، ص 20-21.

ترك الزياني مؤلفات كثيرة أشهرها :

- التُّرجمان المُعْرِب عن دول المشرق والمغرب.(في التاريخ العام).
- البُستان الظّريف في دولة أولاد مولاي علي الشريف. (تاريخ الدولة العلوية).
- رسالة السُّلوك فيما يجب على الملوك (في السياسة).
- التُّرجمانة الكبرى (في رحلاته خارج المغرب الأقصى).

أما رحلة الزيّاني فدونها في كتابه المسمّى (التُّرجمانة الكبرى) الذي جمع فيه "أخبار العالم برّا وبحرا وما تخلّلها من الأمصار، والمدن والقرى والقفار، والبحر والجبال والأنهار، والعيون والمعادن والآبار، وغير ذلك من عجائب خواص الحيوانات والأحجار، وما يريد ذلك من تفسير الآثار، ونوازل الفقه ولغة العرب وشواهد الأشعار."[1]

16. أحمد بن عمار الجزائري (ت: 1204 هـ)[2]

هو أحمد بن عمار بن عبد الرحمن بن عمار الجزائري، علامة الجزائر ومُحدّثها، عاش في القرن 12 هـ.تولّى ابن عمار فتوى مذهب المالكية من سنة (1180 إلى 1184 هـ)وجلس للتّدريس في الجامع الكبير بالعاصمة، وانتصب للخطابة والإمامة ثم تفرغ بعد ذلك للتدريس والتأليف والرحلة.

تنقل ابن عمار في تونس والمشرق العربي عدة مرات فقد حجّ سنة 1166 هـ، وجاور بالحرمين حوالي 12 عاما.

أخذ ابن عمار العلم عن مشايخ عدة في المشرق والمغرب، وتَخرّج على يديه تلامذة كثيرون، منهم أبوراس الجزائري، وأحمد الغَزّال،وخليل المرادي بالشام. وقد برع ابن عمّار في الأدب فكان نسيج وحده في عصره، يُعرف بأسلوبه مهما خَفِيَ وهو الأسلوب الجزل الجذّاب المسجوع بدون تكلف. وقد قيل أنه سار فيه على طريقة لسان الدين بن الخطيب، كما برع في الشّعر والمُوشّحات. واشتهر في الحديث الشريف وروايته.[3]

ألّف ابن عمّار مجموعة من الكتب والرسائل وديوان شعر نذكر منها:

---

[1] رحلة الزياني، تحقيق: عبد الكريم الفيلالي، ص 15، المغرب، 1967.

[2] فهرس الفهارس، الكتاني، ج1، ص 121.

[3] تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص 138.

- نِحْلةُ اللّبيب بأخبار الرّحلة إلى الحبيب (رحلة حجازية).
- لِواء النّصر في علماء العصر. (قال عنه الكتّاني أنه سار فيه على نهج كتاب قلائد العقيان، ترجم فيه لأهل مائتي سنة تقريبا)[1].

أما رحلة بن عمار فقد دوّنها في كتابه المسمّى (نحلة اللّبيب)، وقد قسّمها إلى ثلاثة أقسام[2]:

- القسم الأول: جعل عنوانه مقدمة، جمع فيه النوادر والأشعار والأخبار المتفرقة عن مولد الرسول (ص)، والأشواق عن البقاع المقدسة.

وقد أظهر ابن عمّار في المقدمة مَحْفُوظه من الشّعر والنّثر، حتى بلغت المقدمة وحدها 254 صفحة. كما تحدث فيها عن الدّاعي إلى تأليف رحلته، وعبّر في المقدمة عن عزمه على الحج أوائل سنة 1166 هـ.

وهذه المقدمة هي المطبوعة الآن تحت اسم (رحلة ابن عمّار)·أما القسمان الثاني والثالث فهما مفقودان. ونظنّ أن القسم الثاني هو أساس الرحلة وربما يكون ابن عمار قد خصّصه للحديث عن كل ما حدث له أثناء رحلته.

17. أحمد الغزّال (ت: 1191 هـ)

هو أحمد بن المهدي الغزّال، وُلِد في مكناس وبها نشأ وتعلّم، عَمِل كاتبا للسلطان محمد بن عبد الله سنة (1171 هـ)·بعثه السلطان على رأس وفد إلى إسبانيا للمفاوضة مع ملكها (كارلوس الثالث) فألّف في ذلك رحلة أسمها (نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد).[3]

وقد بدأ الغزّال رحلته من مكناس، وكانت التعليمات بأن يُقيّد مُشَاهداته في إسبانيا، ويَصِف المُدن التي يراها، فخرج من مكناس مُتّجها إلى سبتة. ثم أبحر من هناك إلى الجزيرة الخضراء عبر مضيق طارق، وقد زار الوفد عدّة مُدن إسبانية منها: إشبيلية، وقرطبة، وغرناطة، ومرسية وغيرها. وبعد انتهاء مُهمّة الوفد، أبحر عائدا إلى المغرب بعد غياب دام ثمانية أشهر. وفي سنة (1191 هـ/1777 م) تُوفّي أحمد الغزّال بمدينة فاس.

---

[1] فهرس الفهارس، ج1، ص 122.

[2] اقتبسنا الحديث عن رحلة ابن عمار، من الدراسة التي وضعها الأستاذ سعد الله(أنظر أبحاث وراء في تاريخ الجزائر، ص 182 وما بعدها).

[3] رحلة الغزّال (نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد)، ت: اسماعيل العربي، ص 9 (مقدمة المحقق)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984م.

الفصل الثاني

الرحّالة الجزائريّون في الخمسيّة الهجريّة الثانية

المبحث الأول : ابن الفكّون القسنطيني (كان حيّا سنة 688 هـ).

المبحث الثاني : ابن مرزوق الخطيب (710 – 781 هـ).

المبحث الثالث : عبد الرحمن بن خلدون (732 – 808 هـ).

المبحث الرابع : ابن قنفذ القسنطيني (740 – 810 هـ).

المبحث الخامس : أحمد المقّري (990 – 1041 هـ).

الفصل الثاني : الرحالة الجزائريون في الخمسية الهجرية الثانية.

إنّ طلب العلم وأداء فريضة الحج والتجارة كانت من أهم العوامل التي دفعت بالجزائريين إلى الرّحلة كغيرهم من الرحالة المغاربة.

وكانت الرّحلة في سبيل أداء فريضة الحجّ، تُستغلُّ في أخذ العلم. فقد كان يرافق هؤلاء الرحّالة، في موكب الحجّ، كثير من العلماء يعقدون حلقات العلم في أثناء الرحلة، فكان المُهتمّون بطلب العلم يغتنمون الفرصة وهُمْ في طريقهم إلى الحجاز للأخذ عن الشّيوخ، والتّتلمذ عليهم والاستفادة منهم أينما حلّوا وأينما نزلوا.

ولقد شقّ الرّحالة الجزائريّون طريقهم في اتّجاهين، أوّلهما نحو المشرق، وقد سار فيه معظم الرحّالة، والآخر نحو المغرب الأقصى والأندلس. ويجب التّنبيه هاهنا على أن بعض الرّحلات كانت تخرج عن مقصدها الأساسي، حيث يجد الرّحالة نفسه يخوض غمار السياسة وشؤون الحكم، فيدخل في دوامة من الدسائس والمؤامرات المؤديّة إلى السّجن أو النّفي أو المطاردة. فيضطر هذا الرّحالة للبحث عن ملاذ آمن، فيسيح في الأرض مغرّبا ومشرّقا لعلّه يتفرّغ إلى طلب علم، أو نشر معرفة، أو تأليف كتاب.

ولعلّنا لا نستطيع الحديث عن جميع الرّحالة الجزائريّين في الخمسية الهجريّة الثانية – لأنّ معظمهم لم يقُمْ بتسجيل رحلته. أما الذين اهتمّوا بتسجيل رحلاتهم في هذه الفترة فقد اكتفوا بالإشارة إلى بعض مراحلها في مُؤلّفاتهم المختلفة. فإنّ عدم تسجيل معظم الرّحالة الجزائريين تفاصيل رحلاتهم في كتب مستقلة، يجعلنا نقتصر على ذكر ما سُجّل من مراحل رحلاتهم.

وقد اخترت من الرّحالة الجزائريّين. في الخمسيّة الهجرية الثّانية خمس شخصيات، وهم أشهر الرّحالة الجزائريّين وأهمّهم. وقد تحدّثت عنهم وعن رحلاتهم ببعض التّفصيل فعرّفت بهم وبشيوخهم ومؤلفاتهم، ثم تحدّثت عن رحلاتهم وأسباب القيام بها وطبيعتها ونتائجها. وقد رتّبتهم ترتيبا زمنيّا، وهم على النّحو الآتي:

1- أوليته :

هو أبو علي حسن بن علي بن عمر، المعروف بابن الفكون القسنطيني، أحد أشياخ العبدري، كان من الأدباء الذين تُستطرف أخبارهم وتُروق أشعارهم، رحل إلى مراكش، وامتدح خليفة بني عبد المؤمن. كان حيّا سنة 688 هـ.ولم نعثر على تاريخ ميلاده أو وفاته.

له رحلة نظمها في سَفْرته من قسنطينة إلى مراكش، وله ديوان شعر، ومن جيّد شعره:

دَعِ العراق وبغداد وشَامَهُمَا ... فالنَّاصريّة ما إنْ مثلها بلدُ
برٌّ وبحرٌ ومرجٌ للعُيُونِ به ... مسارحٌ بَانَ عنْها الهمُّ والنكدُ
حيث الهوى والهواء الطّلق مجتمع ... حيثُ الغنى والنَّمى والعيشة الرّغدُ[1]

2- رحلته :

أما رحلته فقد نظمها شعرا في قصيدة قصيرة، وقد ضمّنها ذكر البلاد التي مرّ بها في ارتحاله، على أن أوصافه للمدن التي مرّ بها أوصاف عامة، وفي كثير من الأحيان غير مناسبة لموضوع الرّحلة، لأن تلك الأوصاف تدور على أغراض من الغزل، وفي هذه القصيدة مآخذ كثيرة من اللّغة والنّحو والعروض، وهي كالآتي:

ألا قُلْ للسَّرِيّ بن السريّ ... أبي البدر[2] الجواد الأريحيّ
أمَّا وبحقّك المُبدي جلالا ... وما قَدْ حُزْتَ من حسبٍ عليّ
وما بيني وبينك من ذِمام ... وما أُوتيتَ من خُلُقٍ رضيّ
لقد رَمَتِ العُيُون سِهَامَ غُنْجٍ ... وليس سوى فؤادي من رَميّ
فحسبُك نار قلبي من سعير ... وحسبك دمع عيني من لُتيّ

---

[1] تعريف الخلف برجال السلف، ج1، ص 388.

[2] هو أبو البدر بن فرد قيس صاحب قسنطينة، كان ابن الفلكون قد أرسل له بهذه القصيدة بعد وصوله إلى مراكش.

وكنت أظنّ أنّ النّاس طُرًّا ... سوى زيد وعمرو غير شيّ
فلما جئتُ بَبْلة خيرَ دار ... أمالَتْني بكلّ رشى أبيّ
وكم أوَّرتْ ظباء بني وارٍ ... أُوَار الشّوق بالريق الشهيّ
وجئتُ بجاية فجُلْتُ بِدُورٍ ... يضيق بوَصْفها حرف الرّويّ
وفي أرض الجزائر هام قلبي ... بمَعْسُول المراشف كوثريّ
وفي مليانة قد ذُبت شوقا ... بِلِينِ العَطْف والقلب القسيّ
وفي تنس نسيت جميل صبري ... وهمتُ بكل ذي وجه رضيّ
وفي مازُونةَ ما زِلْت صبّا ... بوَسنَانِ المحاجر لَوذَعيّ
وفي وهران قد أمسيت رهْنا ... بظامي الخِصْر ذي رِدفٍ رويّ
وأبْدتْ لي تلمسان بُدُورًا ... جَلبْن الشّوق للقلب الخليّ
ولم جئت وجدة همْتُ وَجْدًا ... بمُنْخَنِث المعاطف معنويّ
وحلّ رشَا الرَّبَاط رشى رباطي ... وتيَّمني بطَرْفٍ بابليّ
وأطْلَع قطر فاس لي شُموسا ... مغَاربهُنّ في قلب الشجيّ
وما مَكْناسةُ إلّا كنَاسٌ ... لأحْوَرَ ذي جمال يوسفيّ
وإن تسأل عن أرض سَلاَ ففيها ... ظِباءٌ صائدات للكميّ
وفي مراكش يا ويح قلبي ... أتى الوادي فطمَّ على الفريّ
بُدورٌ بل شموسٌ بل صباحٌ ... بَهيٌّ في بَهيٍّ في بَهِيٍّ
أنَخْن مصارع العُشّاق لَمَّا ... سَعينَ به فكم مَيْتٍ وحَيٍّ
بقامة كلّ أسْمَر سمهريّ ... ومُقلة كلّ أبيض مشرفيّ
إذا أنْسينني الولدان حسنا ... أُنسِّيهمْ هوى غيلان مَيّ
فها أنا قد اتّخذت الغرب دارا ... وأُدعى اليوم بالمراكشيّ
على أن اشتياقي نحو زيد ... كشوقك نحو عمرو بالسوّي
تقَسّمَني الهوى غربا وشرقا ... فيا للمشرقيّ المغربيّ
فلي قلبٌ بأرض الشّرق عانٍ ... وجِسمٌ حَلّ بالغرب القصيّ

فهـــذا بالغدوّ يهيـــم غربـــا ... وذاك يهيـــم سرقـــا بالعشـــي

ولولا اللّـــه متّ هـــوًى ووجْـــدًا ... وكم للّـــه من لُطـــفٍ خفـــيّ[1]

[1] ذرة الحجال، ابن القاضي،ج1، ص 237-238.

المبحث الثاني: ابن مرزوق الخطيب التلمساني (710-781هـ/1311-1382م)

وصف ابن الخطيب شيخه ابن مرزوق وصفا جميلا أجمل فيه كل صفاته وأخلاقه ومحاسنه، فقال: "هذا الرجل من طُرف دهره ظرفا وخُصوصيّة ولطافه، مليح التسوّل، حَسَنُ اللّقاء مبذول البشر، كثير التودّد، نظيف البزّة، لطيف التّأتي، خَيِّر البيت، طَلَقُ الوجه، خلُوب اللسان، طيّب الحديث، مُقدّر الألفاظ، عارفٌ بالأبواب، دربٌ على صُحبة الملوك والأشراف. ممزُوج الدعابة بالوقار، والفكاهة بالنّسك، وبحشمة البسط، عظيم المشاركة لأهل ودّه والتّعصب لإخوانه، إلِفٌ مألوفٌ، كثير الاتباع والعلق، مسخّر الرّقاع في سبيل الوساطة، مُجدي الجاه، غاصٌّ المنزل بالطلبة، مُنقادٌ للدّعوة، بارعُ الخطّ أنيقه، عذْب التلاوة، مُتّسع الرواية، مُشاركٌ في فنون من أصول وفروع وتفسير، يكتب ويشعر ويُقيّد ويُؤلّف، فلا يعدو السّداد في ذلك، فارسُ مِنْبر غيرَ جزوع ولا هيّاب).

1- أوليّه:

إنّه محمد (الرابع) بن أحمد بن محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق العسيجي التلمساني. كنيته: أبو عبد الله، ولقبه شمس الدين، عُرف بالخطيب الأكبر[1]. وعُرف بالجدّ والرّئيس[2].

ولد في تلمسان سنة (710 هـ/1311م)[3] ونشأ بها، حفظ القرآن الكريم، وتلقّى مبادئ العلوم المختلفة.

ولمّا بلغ ابن مرزوق الثامنة عشرة من عمره، سافر بصحبة والده إلى الحجاز لقضاء فريضة الحجّ. وبعد أن قرّر أبوه المجاورة بالحرمين الشريفين، أمره بالعودة إلى تلمسان وقد عاد ابن مرزوق إلى بلاده عودة بطيئة، فمرّ بالشام وتونس والجزائر، واتصل بشيوخ هذه البلدان وعلمائها، وشارك في حلقات دروسهم، فقرأ على عدد كبير منهم، وروى وحدّث عنهم.[4]

---

[1] في سنة (730 هـ)، ارتجل ابن مرزوق خطبة في جامع الاسكندرية، ومن هنا خص لسائر حياته بلقب الخطيب (ينظر : نيل الابتهاج بتطريز الديباج، أحمد بابا التنبكتي، ص 268، مطبعة الصادي، مصر، 1329 هـ).

[2] نفح الطيب، أحمد المقري، ت: إحسان عباس، ج5، ص 390، دار صادر، بيروت ، 1969م.

[3] التعريف بابن خلدون، ص 94، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1979م.

[4] البستان، ابن مريم، مراجعة بن أبي شنب، ص 184، المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1908م.

وفي رمضان من سنة 737 هـ، وصل ابن مرزوق إلى تلمسان فالتقى بالسلطان أبي الحسن المريني[1]، وهنا بدأت رحلته، وسنترك الحديث عنها في موضع آخر.

2- شيوخ ابن مرزوق[2]:

تحدّث ابن مرزوق عن شيوخه، وترجم لهم ترجمة ضافية في كتابه "عُجالة المُستوفز"، وقد تجاوز شيوخه المائة شيخ، نذكر منهم ما يلي:

* شيوخه في المدينة المنورة :

- عز الدين أبو محمد الحسن بن علي بن اسماعيل الواسطي (654-741 هـ)[3].
- جمال الدين أبو عبد الله محمد بن خلف الخزرجي (671-741 هـ)[4].
- بهاء الدين موسى بن سلامة المدلجي الشافعي المصري (665-744 هـ)[5].

* شيوخه في مكة المكرمة :

- شرف الدين أبو عبد الله عيسى الحجبي المكي (641-748هـ)[6].
- نجم الدين محمد بن عبد الله بن المحب الطبري (ت: 765 هـ)[7].

* شيوخه في القاهرة :

- تقيّ الدين محمد الأخنائي (ت: 750 هـ)[8].
- أحمد الجوهري الحلبي (ت: 738 هـ)[9].

* شيوخه في تلمسان:

- أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الآبلي[10].

---

[1] هو أبو الحسن علي بن عثمان المريني ولد سنة 675 هـ، تولى الخلافة على المغرب الأقصى سنة 710 هـ، وهو احد سلاطين المغرب المشهورين. (ينظر المسند الصحيح الحسن، ابن مرزوق التلمساني، تحقيق: محمد بوعياد، ص 117، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م).

[2] عن شيوخ ابن مرزوق ينظر أيضا (نفح الطيب، ج5، ص 392-396).

[3] الدرر الكامنة، ابن حجر، ت: محمد جاد الحق، ج2، ص 103، القاهرة ، 1966 م.

[4] المصدر نفسه، ج3، ص 403.

[5] المصدر نفسه، ج5، ص 146.

[6] المصدر نفسه، ج3، ص 283.

[7] المصدر نفسه، ج3، ص 450.

[8] المصدر نفسه، ج4، ص 27.

[9] المصدر نفسه، ج1، ص 339.

[10] نفح الطيب، ج5، ص 244-249.

- أبو زيد عبد الرحمن بن الإمام (ت: 743 هـ) وأخوه أبو موسى عيسى.[1]

3. مؤلفات ابن مرزوق[2]:

لقد ترك ابن مرزوق مؤلّفات عديدة، ضاع جلّها، وبعضها ما يزال مخطوطا، ومن أهمّ مؤلفاته، نذكر:

- "المُسند الصّحيح الحسن، في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن"، الذي ألّفه بدافع تقديم الشّكر والامتنان للسلطان أبي الحسن المريني، وقد تحدّث فيه عن مآثر ومحاسن هذا السلطان، كما سجل فيه بعض نصوص رحلته إلى المشرق ثم إلى المغرب.
- "برح الخفاء في شرح الشّفاء": وهو شرح لكتاب الشّفاء، للقاضي عيّاض (ت: 544 هـ).
- "عُجالة المُستوفز المُستجاز": سجّل فيه ابن مرزوق قائمة طويلة بأسماء شيوخه الذين تتلمذ عليهم".
- "جَنَى الجَنّتين في فضل اللّيلتين" : قصيدة في ليلة المولد النبوي الشريف وليلة القدر.
- "إزالة الحاجب عن فُروع ابن الحاجب" شرحٌ لكتاب المختصر في الفروع لابن الحاجب.

4- رحلة ابن مرزوق:

لم يترك لنا ابن مرزوق وصفا كاملا لرحلته، ونظنّ أنه سجل ذلك في كتابه (عجالة المستوفز) الذي لا يزال ضائعا.وسنحاول استخراج بعض نصوص رحلته، من مُؤلّفه (المسند الصحيح)، ومن بعض النصوص التي نقلها المقري عن كتابه (عُجالة المُستوفز)، حتى نُكوّن فكرة شاملة عن مضمون رحلته، وعن أحداثها وأوصافها.

---

[1] تعريف الخلف برجال السلف ، ج2، ص 11-12.

[2] المسند الصحيح الحسن، ص 48-53.

- خروج ابن مرزوق من الحجاز:

ذكر ابن مرزوق سبب خروجه من الحجاز، فقال: "... واقْتضى نظر مولاي الوالد رحمه الله الانفراد، وبعثني للوطن".[1]

فقد طلب منه والده – عندما قرّر المكوث بالحجاز– العودة إلى تلمسان، ليكون بجوار عمه، فقال له: "يا بُنيّ، وفاتي قرُبت، وقد سألت الله أن أموت غريبا، فلا تُفسد عليّ عملي ..."[2]. فخرج ابن مرزوق من الحجاز، مُتّجها إلى المغرب، فمرّ في طريقه بالشام، ثم اتّجه صوب الدّيار المصرية. وقد حدّثنا عن وصوله إلى مصر فقال: "... فلما وصلت إلى مصر، نزلت على شيخي قاضي القضاة، عز الدين بن بدر الدين بن جماعة الشافعي وأعْمَلْتُ من مصر من داره الحركة"[3]. فقد اتّخذ ابن مرزوق دار شيخه مركزا ينطلق منه إلى زياراته المختلفة للبلاد المصريّة، فأقام بالقاهرة يأخذ العلم عن عدد من علماء مصر المشهورين وقد حدّثنا ابن مرزوق عن أحد أشياخه في مصر، وعن العلوم التي أخذها عنه وهو الشيخ محمد بن جابر الوادي آشي (ت: 749 هـ) فقال: " ... وعاشرتُه كثيرا سفرا وحضرا، وسمعتُ بقراءته وسَمِعَ بقراءتي، وقرأتُ عليه بالقاهرة، وقرأتُ عليه بمدينة فاس، وبظاهر قسنطينة، وبمدينة بجاية، وبظاهر المهدية، وبمنزلي بتلمسان، وقرأتُ عليه عوالي من تخريج الدّمياطي، وفيها الحديث المُسلسل بالأوليّة ... ثُم قرأتُ عليه كتاب الشّفاء لعياض..."[4].

وبعد أن مكث ابن مرزوق مُدّة بالقاهرة، أمضاها في طلب العلم ، والأخذ عن الشيوخ، خرج مسافرا إلى الاسكندرية عن طريق البحر، فرافقه جماعة من أصحابه المصريين إليها. وكان والده أمره بزيارة أحد الشيوخ في الاسكندرية في طريق عودته، لكنّ ابن مرزوق كان في نفسه شيء من هذا الشيخ، فكان مُتردّدا في زيارته.

وأثناء سفر ابن مرزوق إلى الاسكندرية في البحر، جرت له حادثة جعلته يُصحّح اعتقاده في هذا الشيخ، ويُسارع في الذهاب إلى زيارته. وعن هذه الحادثة حدثنا ابن مرزوق، قائلا: " ... فقصدنا البحر، واكْتَرينا في جَفْنٍ مُتّوجه إلى الثغر، فلما طلعنا

---

[1] المصدر السابق، ص 480.

[2] المصدر نفسه، الصفحة 480.

[3] المسند الصحيح الحسن، ص 481.

[4] نفح الطيب ،ج5، ص 200 وما بعدها.

وأخذنا مجالسنا، وكنت في كَيْبٍ مع أصحابي، أقلعنا ليلا، فنام أصحابي ومنعني خوف ركوب البحر النّوم، فرأيت إلى جانبي رجلا عليه زيّ الطلبة، فسألني عن الحَالِ سؤال مُتعرّف النسب والحلية والوجه، فأعلمته، ولمّا أخبرته بقصد الزيارة للشّيخ[1]، قابلني بالإنكار، وقال لي "مثلك ممّن حَصّل من طلب العلم ما حصّله، يعمل الرّحلة وشدّ المطيّ لغير ما يُشدّ المطيّ له". فدار بيني وبينه بحث طويل ... ثم إن النّفس اشتغلت بالركون لقوله، فلم يكن إلا أن عرض لي هذا الخاطر . وإذا بالنواتيّة[2] يصيحون صيحة واحدة، يحذّرون من الحصول في موضع يدور فيه الماء، فمالوا عنه بمركبنا، فصَادَفَنَاَ مركب كبير كان عاليا علينا، فتكسّر الكَيبُ الذي كنت فيه، وتعلّقَتْ ثيابي بمخطاف، وهو مرسى المركب الذي صَدَمنا، فتعلّقت به وانفصل المركبان، فأقمت مُتعلّقا مُدة ثم سقطت إلى البحر، وأنا لا أُحسن السباحة، فوقع في الحال في خاطري أني أُصِبت بسبب تردّدي فيما توجّهت بسببه، ونويت التّوبة، فسقطت على خشب يجمعونها ويربطونها بالأجفان ... فجلستُ عليها، فنادى بعض أهل المركب بعضا، "هذا غريق"، فاحتملوني وصعدوا بي، وكانوا نَوَاتيّة ملاّحين ليس معهم مُعْتبر، فتفاوضوا في استلابي وطَرْحي في البحر، فنظر بعضهم إليّ طويلا، وقال: "هذاابن مولانا قاضي القضاة المالكي رأيته يقرأ عليه. فأحاطوا بي من كل جهة يخدمونني، فتفقّدني أصحابي في مركبهم، فأرسوا وجاؤوا على البر يطلبونني، فأنزلوني ورجعت معهم، فأخبرتهم أمري، وطلبنا الرجل الذي ناظرني، فوالله ما وقعنا له على خبر، ولا في المركب من رأى صفته، فعَلِمْتُ أنّه شيطان"[3]. فابن مرزوق يرى أن ما جرى له في هذه الحادثة، إنما جرى له بسبب سوء اعتقاده في الشيخ الوليّ الصالح. وأن نجاته من الغرق، كانت بسبب توبته، وإقلاعه عن نيته الأولى.

وبعد زيارة ابن مرزوق لهذا الشيخ، توجّه صوب مقصده، فمرّ بطرابلس الغرب، ثم تونس، ولما دخل إلى الجزائر، جاءه كتاب من عمّه يستحثّه على الإسراع في المسير، وعن ذلك قال:" ... فلما نزلت بوادي شلف، تلقّاني عبد الواحد بن محمد ... بكُتُب من الحضرة، ومن عمّي يستحثني على الوصول فوصلت تلمسان"[4]. ففي شهر رمضان من

---

[1] يقصد الشيخ الذي أمره والده بزيارته، وهو الشيخ أبي عبد الله المرشدي.

[2] النواتية: أصحاب المركب وملاحوه.

[3] المسند الصحيح، ص 483-484.

[4] المصدر نفسه، ص 481.

سنة (733 هـ/1332م)، دخل ابن مرزوق تلمسان، فوجد السلطان أبا الحسن المريني قد افتكّها من بني عبد الواد. وكان السلطان أبو الحسن قد أمر بإنشاء مسجد في ضاحية العُبّاد، فأَوْكل هذا العمل إلى ابن مرزوق وعمّه.

وقد أعطانا ابن مرزوق صورة واضحة عن هذا المسجد بعد إتمام بنائه، فوصفه قائلا: " ... أما الجامع الذي بناه (يقصد السلطان) حذاء ضريح شيخ المشايخ أبي مدين شعيب بن الحسين رضي الله عنه، فهو الذي عزّ مثاله، واتّصفَتْ بالحُسن والوثاقة أشكاله ... وكان بناؤه على يد عمّي وعلى يديّ، اشتمل على الوضع الغريب، وهو أن سقفه كلها أشكال منضبطة بخواتم وصناعات نجارة، كلّ جهة تخالف الجهة الأخرى في الوضع، ...

قد رُقّمت، على نحو ما يُرْقَم عليه أشكال النجارة، فلا يختلج في النفس شك، ولا يَعْرض لها وهْمٌ، أنّها أشكال منجورة منقوشة، وهي كلّها مبنية بالآجر والفضّة، واشتمل (أي المسجد) على المنبر العجيب الشكل، المُؤلّف من الصندل والعاج والأبنوس، المُذهّب كله، وأما الباب الجوفي الذي ينفتح على المدرج الذي يُنْزل فيه إلى قبر الشيخ، وهو باب النّحاس المشتمل على مصراعين، كل مصراع منها مُصفّح بالنحاس المرخّم، المنقوش بالخواتم المستوفاة المشتركة العمل. وتخريمه على أشكال من نحاس مُلونة، فهو غريب ما يتحدّث به السّفار ... أخذ على صناعة المصراعين الصّفارون نحوا من سبعمائة دينار ذهبا عينا، عدا ثمن النحاس والحديد والخشب والأصبغة. على مدرجه (المسجد) قبّة من صناعة المُقَرْبص، غريبة الشّكل، قليلة المثل، وصومعته كذلك في غاية من الحسن والإتقان"[1].

وبعد أن تمّ بناء هذا المسجد، تولّى عم ابن مرزوق مُهمّة الخطابة فيه، لكن ما لبث هذا العمّ أن وافاه الأجل، فصارت الخطابة في المسجد إلى رحّالتنا ابن مرزوق. وظلّت مكانته ترتفع لدى السلطان أبي الحسن، فاختاره ليكون رسولا إلى ملوك الأندلس للمفاوضة في شأن إطلاق سراح الأسرى. فنجح ابن مرزوق في مهمته، وقام بها أحسن قيام. وعند عودته من هذه السفارة إلى فاس، استأذن السلطان في العودة إلى تلمسان، لعله يستطيع التفرغ للدراسة والتأليف، لكن عودة ابن مرزوق إلى تلمسان لم تكن مُوفقّة، فقد وقع في محنة نُفِيَ على إثرها إلى الأندلس. وقد استقبل ابن مرزوق هناك استقبالا حافلا،

---

[1] المسند الصحيح، ص 403-404.

والتقى هناك بالوزير لسان الدين ابن الخطيب[1]، وعُيّن خطيبا للحضرة، ومُدرّسا للمدرسة البلاطية سنة (753 هت/1352م)[2]. ممّا حبّب إليه البقاء في الأندلس مدة سنتين أنسته محنته الأخيرة.

- عودته إلى المغرب الأقصى

لما استولى أبو عنان على تلمسان، دعا ابن مرزوق، فلبى هذا الأخير ووصل إلى بلاطه سنة (755 هـ)، فأكرمه وألحقه بأكابر أهل مجلسه، فارتفعت مكانته عنده، وعاش عيشة هادئة،إلا أنّ ذلك لم يدم طويلا، ففي سنة (758 هـ) بعث به السلطان أبي عنان إلى تونس ليخطب له بنت السلطان الرّاحل أبي يحي الحفصي (ت: 747 هـ).لكنه لم ينل التوفيق هذه المرة، فحَنِق عليه أبو عنان، ظنّا منه أن ابن مرزوق هو السبب في خيبة مسعاه فأودعه السجن ولم يُفرج عنه إلا في سنة 760 هـ.

ولما تسلّم أبو سالم[3] مقاليد الحكم عرف فضل ابن مرزوق فآثره بمودّته وحبّه، فتضاعفت حظوته لديه، وعلت كلمته عنده، فصار تصريف الأمور بيده، فكرهت العامة ذلك، فقُتل أبو سالم سنة (762 هـ)، وسُجن ابن مرزوق للمرة الثالثة.

- خروجه إلى تونس:

لما رأى ابن مرزوق ما آلت إليه الأمور من اضطراب واعتقال، قرّر الخروج من المغرب الأقصى إلى تونس، لعلّه يجد هناك فرصة للراحة والدّعة، فخرج بأهله، وسافر إلى تونس بطريق البحر سنة (764 هـ)[4].

وتجدر الإشارة هاهنا إلى أن ما أورده صاحب زهر البستان مخالف تماما لما أورده المقري وابن أبي دينار، من أنّ ابن مرزوق ركب البحر مباشرة إلى تونس ، فقد أورد صاحب زهر البستان خبرا هذا نصه: "... وفي هذا العام (أي 764 هـ)، كانت

---

[1] هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد السلماني، ولد سنة (731 هـ)، نشأ بغرناطة في بيت علم، وبها درس كان يدعى بذي الوزارتين : الأدب والسيف، وكان طبيبا بارعا، له مؤلفات تناهز الستين في التاريخ والشعر والأدب والطب، أهمها (الإحاطة في تاريخ غرناطة) له رحلة في البلاد الأندلسية، دونها في كتاب أسماه (خطرة الطيف في رحلة الشتاء والتصيف) وألف كتابا في رحلته المغربية سماه (نفاضة الجراب في علالة الاغتراب) توفي مقتولا سنة(776 هـ) ودفن بفاس. أنظر (هدية العارفين، إسماعيل البغدادي، ج6، ص 167-168، استنبول، 195م). و(دليل مؤرخ المغرب، عبد السلام ابن سودة، ج1، ص 410، تطوان، المغرب).

[2] التعريف بان خلدون، ص 51.

[3] هو السلطان أبو سالم إبراهيم بن علي (أبو الحسن) المريني تولى سلطان المغرب الأقصى ما بين (760-762 هـ).

[4] نفح الطيب، ج5، ص 407 و(المؤنس، بن أبي دينار، ت: محمد شمام، ص 105، تونس 1967م).

حوادث يجب ذكرها، منها وصول الفقيه الخطيب أبي عبد الله بن مرزوق، الأستاذ النجيب، وذلك في الثاني والعشرين لرجب من العام المذكور، وخطب بالمولى أبي حمو بالعياد المبارك المشهور، خطبة بليغة بارعة، أطيب فيها عليه". ثم يذكر صاحب زهر البستان بعد هذا، تاريخ خروج ابن مرزوق من تلمسان، فيقول: "... وفي ثالث ذي الحجة، سافر ابن مرزوق المذكور، وأبو البركات القرموني، خطيب الجامع الأعظم المشهور، كلاهما لحجّ بيت الله الحرام، ولزيارة قبر نبيّه محمد عليه أفضل السلام، وعند وداعهما للمولى أبي حمو السلطان، أعطاهما من الموادّة والجمال ما يوصلهما إلى تلك الأوطان، وكتب لصاحب بجاية في شأنهما ولصاحب تونس ليبالغ في إكرامهما"[1].

فهذا النص يدل على أنّ ابن مرزوق، لم يسافر مباشرة إلى تونس فقد نزل بتلمسان في طريقه إليها، ومكث بها أشهرا. كما يدل على أن ابن مرزوق كان ينوي الذهاب إلى الحجاز بقصد الحج ، وأنّه سافر برّا على الأقل من تلمسان إلى تونس.

وما يؤكد أن ابن مرزوق لم يسافر مباشرة إلى تونس عن طريق البحر النص الذي نقله المقري عن كتابه (عجالة المستوفز)، هذا النص الذي يتحدث فيه ابن مرزوق عن تاريخ وصوله إلى تونس، فيقول: " ... إني قد وصلت تونس المحروسة في شهر رمضان سنة خمس وستين (765 هـ)[2]". فهذا النص يدّل أيضا على صحّة ما ذهب إليه صاحب زهر البستان، حيث أن سفر ابن مرزوق دام ما يقارب السنتين. فلو كان السفر من فاس إلى تونس في البحر مباشرة لكانت مدته أقصر.

أما إذا ذهبنا نُوفّق بين النصين نقول أنه ربما خرج ابن مرزوق من فاس إلى تلمسان عن طريق البحر، لكنه أكمل سفره من تلمسان إلى تونس برا. إلا أن ما ذهب إليه صاحب زهر البستان، من أن ابن مرزوق خرج من تلمسان بقصد الحج، فهذا خبر غامض، يجب التثبت من صحته، لأننا سنرى بعد هذا أن بن مرزوق أقام بتونس ما يقارب السبع سنين. ومهما تكن طريقة وصول ابن مرزوق إلى تونس، فقد لقي لدى وصوله إليها استقبالا وحفاوة من قبل السلطان أبي إسحاق[3] وأهلها. وقد وصف ابن

---

[1] زهر البستان في دولة بني زيان، مؤلف مجهول ، ج2، ص (91 وجه-91 ظهر)، مخطوط خاص.

[2] نفح الطيب، ج5، ص 408.

[3] هو السلطان أبو إسحاق إبراهيم (الثاني)، الملقب بالمستنصر، تولى الخلافة على تونس سنة (751 هـ) (أنظر : تاريخ الجزائر العام،ج2، ص 86).

مرزوق ما لقيه من الحفاوة لدى قدومه إلى تونس، فقال: " ... فلقيت بها من المبرّة والكرامة والوجاهة، فوق ما يَعْهده أمثالي، ووُلّيت خطابة جامع ملكها، وتدريس أم المدارس فيها، وهي المعروفة بمدرسة الشمّاعين"[1]. فقد وُلّي ابن مرزوق خطابة جامع الموحدين، وبقي على ذلك مُدّة، يُدرّس العلم، وينشُر المعارف ،إلاّ أنّ تدهورت الأمور بتونس، حيث أخذها سلطان بجاية أبو العباس، وعزل ابن مرزوق عن وظائفه، بسبب عداوة قديمة كانت بينهما. فعلم ابن مرزوق أنه لا سبيل للبقاء في تونس، فقرّر الرحيل إلى المشرق فركب السفينة في سنة (773 هـ)، واتجه صوب مصر وقد لقي من ملكها حين حلّ بها من المبرّة والكرامة ما لا يوصف، وفي هذا الصدد كتب يقول:" ... إلى أن رحلت في شهر ربيع الأول، سنة ثلاث وسبعين، فحللت بالديار المصرية ولقيت من ملكها الذي لم أر في الملوك مثله حلما وفَضْلا وحَياءً وجُودا ... السلطان الأشرف ناصر الدين شعبان بن الحسين، فأحسن لي، وقلّدني دروسا ومدارس، وأهّلني للمثول بين يديه"[2].

وفي مصر لقي ابن مرزوق جمعا من العلماء والأمراء، فأُعجبوا به، وقد تقلّد المناصب العلميّة المختلفة، فقد عُيّن قاضيا وخطيبا ومُدرّسا في مساجد صلاح الدين الثلاثة: الشّخنية والصّرغتمشية، والقمحيّة[3].

وفي شهر ربيع الأول لعام (781 هـ)[4] توُفي ابن مرزوق في القاهرة، وكان في أيامه الأخيرة قد عاد إلى الراحة، وحُسن الحال، وعُلوّ المكانة، وذلك بعد حياة طويلة مليئة بالنشاط العلميّ والنشاط السياسي.

5- نصوص من رحلة بن مرزوق :

لقد ترك ابن مرزوق بعض نصوص رحلته، وصف لنا فيها بعض ما شاهده ورآه من منشآت وأبنية، وذكر لنا بعض العادات التي سجّلها حين تواجده بالمغرب الأقصى في كنف المولى أبي الحسن المريني، فلا بأس أن نورد هنا بعض هذه النصوص، تَكْملة لِما أوردناه آنفا.

---

[1] و [2] نفح الطيب ، ج5، ص 408.

[3] البستان ، ص 508.

[4] كتاب الوفيات، ابن قنفذ، ص 373.

فعن عادة إحياء المولد النبوي الشريف حدّثنا ابن مرزوق قائلا: "... ومن العادة أن يَستعدّ لها بأنواع من المطاعم والحلاوات، وأنواع الطيب والبخور، وإظهار الزينة والتأنق في إبداء المجالس... فإذا صلّينا المغرب، يَستدْعي (أي السلطان) النّاس على ترتيبهم، ويَأمر بأخذ المجالس على طبقاتهم، على أحسن وأجمل إشارة، فإذا فرغ الترتيب، وأخذ النّاس مجالسهم، دُعِيَ بالطعام، فاشتُغل به على ترتيب ونظام ... فإذا قُضي شأن الطعام، أُحْضر من الفواكه الحاضرة في الوقت، ما يُوجد في إبانه، ثم يُؤتى باليابس بعدها، ثم يُؤتى بالكعك والحلاوات، ثم يُؤتى بملاّح السّكر، وربما اختلفت العوائد في التوالي مرة، وفي الفترة أخرى، وذلك من أعجب ما يُتحدّث به كثرة وحسنا"[1].

ويواصل ابن مرزوق وصف هذه الليلة الجليلة، فيقول: "... وتارة يقع الإطعام بعد العشاء الآخرة، فإذا استوت المجالس، وانفضّ اللّغط، ولا تكاد تسمع صوتا إلا هَمْسا، قام قارئ العُشّر فقرأ، ثم تقدّم زعيم المُسْمِعين بصفّه، فيَقْضي بعض نوبته. ويشرع في قصائد المدح والتّهاني، فتُقرأ على نظام محفوظ، وترتيب مَحُوط على قدر المنازل والرُّتب والمناصب، فتطير القلُوب فرحًا ، وتُسْرد المُعجزات، وتكثر الصّلوات على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم،وهي من أعاجيب ما يُرى في بلاد المغرب ..."[2]

وقد أعطى لنا ابن مرزوق فكرة عن الكتب التي كانت تُدرس في تلك الفترة، فقد وصف لنا مجلسا للإقراء في قصر السّلطان أبي الحسن، فقال: " ... أكثرُ ما كُنّا نقرأ بين يديه (أي السلطان)، كتاب "الجامع الصّحيح" للإمام أبي عبد الله بن اسماعيل البخاري، وهو الكتاب الذي لا نظير له، أحد كتب الإسلام المعتمدة، وهو أصّحها صحيحا، وأكثرها فوائد ... وقرأت بين يديه غير مرّة "كتاب الشفاء"[3]، وفضله معروف، وقد كتبتُ مقدّمةً في شرحي له المُسمّى بَرْح الخفاء في شرح الشفاء".وقرأتُ بين أيديهم كتاب "الاكتفاء" للإمام سليمان بن سالم الكلاعي. وقرأت بين أيديهم كتاب "الحِلْية" للحافظ أبي نعيم الأصبهاني،وكتابً المُدهش" لابن الجوزي"[4].

---

[1] المسند الصحيح، ص 153.

[2] المصدر نفسه، ص 154.

[3] هو كتاب (الشفا بتعريف حقوق المد صطفى)، ألفّه القاضي أبو الفضل عياض بن موسى السبتي، ولد بسبتة سنة (476 هـ)، وتوفي بمراكش سنة (544 هـ) (ينظر: وفيات ابن قنفد، ص 280).

[4] المسند لصحيح، ص 277.

وقد وصف ابن مرزوق بعض المنشآت، منها الأبراج التي بناها المولى أبو الحسن المريني في سبتة، فكتب عنها يقول: "... ومن أعجب ما أنشأه، الأبراج التي اجتمع أهل الخبرة بالمباني، وعُرفاء العمارة، (على أنه)[1] لا يُتصوّر بِناؤها على الوجه الذي قدّره وأوْرده. فجاءت على أتمّ الوجوه من الإحسان،فمنها بُرج الماء الذي أنشأه داخل البحر، ووَسْط الأمواج بساحل سبتة. وقد حَضَرْت إنشاءه، وكان قد اجتمع الملأ على عدم إمكان بنائه هناك، فنُقلت الصّخور التي كالرّوابي، والأحجار التي لا يَتَزحْزَح مثلها إلا بهندسة وإحكام وعجل. فأُلقيت في تلك التُّروش. وضُمّ إليها أمثالها، حتى صارت جزيرة في وسط البحر. فأقام عليها ذلك البرج المشيد المعروف هناك، ثم أمر بعمل جسر يمرّ من الساحل إلى هذا البرج، بحيث يُتمكّن مشْيُ البهيمة عليه ... وهو من أعاجيب معمورات المعمورة"[2].

كما وصف ابن مرزوق بعض الزوايا، وقال أنّ أهل المشرق يُطلقون عليها اسم الرّبط والخوانق، وقال أن "الخانقات عَلَمٌ على الرّبط، وهو لفظٌ أعجميٌّ، والرباط في اصطلاح الفقهاء عبارة عن احتباس النّفس في الجهاد والحراسة، وعند المتصوّفة عبارة عن الموضع الذي يُلتزم فيه بالعبادة"[3].

كما ترك لنا ابن مرزوق وصفا لعدد من المساجد والصوامع والمدارس[4] التي عُفِّي رسمها الآن، ولم يبق منها إلا الأطلال الشاهدة عليها، والأخبار المُتحدّثة عن وجودها.

---

[1] سقطت في النص الأصلي اقتضاها السياق.

[2] المسند الصحيح، ص 398 –399.

[3] المصدر نفسه، ص 411.

[4] المصدر نفسه، ص 400 إلى ص 407.

المبحث الثالث: عبد الرحمن بن خلدون (732- 808 هـ)

1- نسبه وأوليته:

هو أبو زيد ولي الدين عبد الرحمن بن محمد بن خلدون[1] ينتمي إلى أسرة عريقة في الثقافة والعلوم. وبنو خلدون يتحدّرون من أسرة عربية قديمة، أصلها من حضرموت[2]، استقرّت بالأندلس إثر الفتح الإسلامي.

وُلد عبد الرحمن بن خلدون بتونس عام (732 هـ/1332م)[3] وكان أبوه مُعلّمه الأول، حيث علّمه شيئا من القرآن الكريم، ثم كان تعلّمه على يد مجموعة من الشيوخ، نذكر منهم: الشّيخ محمد بن بُرّال (ت: 749 هـ)[4]، حفظ على يديه القرآن وأخذ عنه علم القراءات، ودرس كتاب مختصر ابن الحاجب[5] في الفقه، وكتاب التسهيل[6] لابن مالك في النحو، كما كان أبوه يُلقنه صناعة العربية.

ومن شيوخ ابن خلدون كذلك، أبو عبد الله الحصائري[7]، وأحمد بن القصار (ت: 808 هـ)[8]، ومحمد بن بحر[9]، ومحمد بن جابر الوادي آشي، والقاضي بن عبد السلام[10] (ت: 749هـ).

---

[1] التعريف بابن خلدون، ص 3 وص 97.

[2] تجدر الإشارة هنا إلى أن طه حسين شكك في صحة نسب ابن خلدون العربي، دون أن يستند إلى أي دليل علمي، كما أنه تحامل عليه تحاملا عنيفا في كثير من المواضع في كتابه (فلسفة ابن خلدون الاجتماعية، تعريب : عبد الله عنان ، ص 10-11، القاهرة ، 1925م).

[3] المصدر السابق، ص 17.

[4] هو أبو عبد الله بن سعد بن برّال القرشي، من أصل أندلسي، كان متضلعا في القراءات (أنظر الضوء اللامع، السخاوي، ج4، ص 145، القاهرة ، 1353 هـ).

[5] هو مختصر في الفقه المالكي، يسمى المختصر الفقهي، والفرعي، والجامع بين الأمهات، ألفه: عثمان بن عمر بن يونس، المعروف بالحاجب المصري (570-646 هـ) (أنظر: وفيات بن قنفذ، ص 319).

[6] هو كتاب تسهيل الفوائد في النحو، لصاحبه أبو عبد الله محمد بن مالك الأندلسي الجياني النحوي (600-672 هـ)، عني أعلام اللحو بهذا الكتاب قراءة وشرحا وإقراء (أنظر: كشف الظنون عن أسامي الفنون، حاجي خليفة، ج1، ص 405، استنبول، د/س).

[7] هو أبو عبد الله ابن العربي الحصائري، كان أستاذا مشهورا في النحو، له شرح على كتاب التسهيل (أنظر:التعريف بابن خلدون، ص 19).

[8] هو أبو العباس أحمد بن محمد بن القصار، كان متضلعا في النحو، وله شرح على قصيدة البردة للبويصري (أنظر: المصدر نفسه، الصفحة نفسها).

[9] هو أبو عبد الله محمد بن بحر، كان بحرا زاخرا في علوم اللسان (أنظر: المصدر نفسه، الصفحة نفسها).

[10] هو ابو عبد الله محمد بن عبد السلام المنستيري الهواري، كان يدرس موطأ الإمام مالك، ومختصر ابن الحاجب (أنظر: المصدر نفسه، ص 20).

وبقي ابن خلدون "مُكبّا على تحصيل العلم، حريصا على اقتناء الفضائل، مُتنقلا بين دروس العلم وحلقاته، إلى أن كان الطّاعون الجارف، وذهب بالأعيان والصدور، وجميع المشيخة"[1].

فقد أفنى الطاعون الذي ضرب المغرب العربي عام 749 هـ، كل شيوخ ابن خلدون الذين كان يقرأ عليهم، فلم يبق بتونس شيخ ولا مُعلّم، حتّى وفد على تونس السلطان أبو الحسن المريني، وجلب معه جُلّة من العلماء والشيوخ، فأقبل عليهم الطلبة ينهلون من علومهم، ومن بينهم عبد الرحمن بن خلدون.

2- شيوخ بن خلدون :

إن عدد مشايخ ابن خلدون كثير، فإضافة إلى ما ذكرناه، فهناك من سمّاهم بنفسه، ولا سيما من وفدوا مع أبي الحسن المريني، ومنهم :

- أبو القاسم عبد الله بن رضوان المالقي[2]: الذي وُلد بالأندلس، عمل بديوان الإنشاء في عهد أبي الحسن، ثم عُيّن في وظيفة الإنشاء في عهد أبي سالم، وبقي على ذلك حتى وفاته سنة 748 هـ.
- محمد بن علي بن سليمان السطي[3]: وُلد بفاس، كان مُتضلّعا في الفقه على مذهب مالك، أقام في تونس ما بين (748-750هـ). توفي غريقا سنة 750 هـ.
- محمد بن إبراهيم الآبلي[4]: وُلد بتلمسان سنة 681 هـ، رحل إلى المشرق ثم عاد إلى تلمسان، ولما أراد السلطان أبو حمو الأول[5] تعيينه في عمل إداري فرّ إلى فاس،وبها توفيّ.وقد بلغ تأثير الآبلي في تكوين عبد الرحمن بن خلدون وغيره من علماء المغرب العربي في ذلك الوقت مبلغا عميقا، ويتمثل ذلك في العلوم العقلية والطبيعية، ومنهجيّته في ذلك.

---

[1] المصدر السابق، ص 57.

[2] المصدر نفسه، ص 23 وص 42-45.و(الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى، الناصري السلاوي، ج4، ص 39، دار الكتب، المغرب، 1954م).

[3] نفح الطيب، ج5، ص 241.

[4] بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، يحي بن خلدون، ت: عبد الحميد حاجيات، ج1، ص 120 وما بعدها، المكتبة الوطنية، الجزائر.

[5] هو أبو حمو موسى الأول بن السلطان أبي سعيد بن أبي يحي يغمراسن الزياني، أحد السلاطين لدولة بني زيان. (أنظر: المصدر نفسه، ج1، ص 212).

- عبد المُهيْمن الحضرمي[1]: وُلد بسبتة سنة 675 هـ، كان ضالعا في اللغة العربية كما كان كاتبا مشهورا، تُوفّي بالطاعون سنة 749 هـ.

فهؤلاء بعض المشايخ الذين حضروا مع السلطان أبي الحسن إلى تونس وقرأ عليهم ابن خلدون، وهناك شيوخ آخرون لقيهم ابن خلدون بفاس وقرأ على بعضهم، وسنذكرهم في غير هذا الموضع.

3- مؤلفات ابن خلدون[2]:

لابن خلدون قصائد عديدة نظمها في مدح الأمراء والملوك الذين خدمهم، أو في تهنئتهم بالأعياد، أو في استعطافهم، وله أيضا مراسلات شعريّة مع الوزير لسان الدين بن الخطيب.

كما أن لابن خلدون مجموعة رسائل وخطب أجاد في تدبيجها، وتعتبر رسائله للسان الدين بن الخطيب من أجود الرسائل التي عرفها النثر العربي.

وقد اشتهر ابن خلدون بكتابه الوحيد في التاريخ العام، الذي سمّاه (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر)،وقد قسّمه إلى مقدمة وثلاثة كتب،وتعتبر مقدّمته من أهم إنجازاته وإليها ترجع شهرته.

فالكتاب الأول تحدّث فيه عن العمران والمُلْك والسّلطان وهذا الكتاب مع مقدمته هو المعروف بـــ (مقدّمة ابن خلدون).

والكتاب الثاني، تحدّث فيه عن أخبار العرب ومواليهم وأجيالهم، ويُعدّ هذا القسم من أهم المصادر التاريخية للبربر. وفي آخر هذا الكتاب ترجم ابن خلدون لنفسه بقسم سمّاه (التعريف بابن خلدون)، وذكر فيه رحلاته شرقا وغربا.

4- رحلة ابن خلدون:

لم يدوّن عبد الرحمن بن خلدون رحلته في كتاب مُستقلّ، بل أوردها من خلال حديثه عن نفسه، في الملحق الذي وضعه في آخر كتابه (العبر).

---

[1] كتاب العبر، عبد الرحمن بن خلدون، ج7، ص 515-517، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1957م.

[2] عن مؤلفات ابن خلدون، أنظر: ابن خلدون، أفرام البستاني، ص 47-48، دار المشرق، بيروت، ط6، 1982م.

وقد جُمعت سيرة ابن خلدون في كتاب مستقل، نُشِر تحت عنوان: (التّعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا) ما ساعدنا على تتبّع مراحل رحلاته، منذ خروجه من تونس حتى قُبيل وفاته بأشهر.

فعندما أنهى ابن خلدون دراسته على يد أساتذته، بدأ مرحلة التثقيف الذاتي، وأخذ يُخطّط لمستقبله العلمي، فأخذ يتطلّع إلى الفرصة التي تسنح له للرحلة إلى الأقطار العربية في طلب العلم والاستزادة من العلوم والمعارف.

ولعلّ السبب الذي شجّع ابن خلدون على مغادرة تونس، حادثان كان لهما أثر كبير في تغيير مجرى حياته، أما الحادث الأول، فهو وباء الطاعون الذي انتشر في المغرب العربي سنة (749 هـ)، وقضى على خلق كثير، وكان مِنْ بين مَنْ قضى عليهم، والدا ابن خلدون وجميع شيوخه الذين درّسوه، هذا الوباء الذي طوى البساط بما فيه.

أما الحادث الآخر، فهو هجرة معظم العلماء من تونس إلى المغرب الأقصى، في صحبة السلطان أبي الحسن، فأخذ ابن خلدون يفكّر في الرحيل إلى فاس مع من رحلوا إلا أن أخاه الأكبر منعه من ذلك، وقد عبّر ابن خلدون على أسفه لذلك، قائلا : "فلما رجع بنو مرين ... وأكثر من كان معهم من الفُضلاء صحابةٌ وأشياخ، فاعتزمت على اللّحاق بهم، وصدّني عن ذلك أخي وكبيري محمد ... "[1].

وهكذا حُرِم ابن خلدون شيوخَهُ ورفقاءه في الدرس والعلم، فانطوى على نفسه يترقّب أول فرصة للخروج من تونس حتى عهد إليه الوزير "ابن تافراكين" (صاحب تونس) بوظيفة "كتابة العلامة"[2]، فلم يتردّد في قبول هذه الوظيفة لأنه رآها طريقته الوحيدة للخروج من تونس. وقد صرح ابن خلدون بذلك قائلا: ".. فلما دُعيت إلى هذه الوظيفة، سارعت إلى الإجابة لتحصيل غرضي من اللحاق بالمغرب"[3].

– الرحلة إلى المغرب الأقصى:

عندما خرج الوزير ابن تافراكين في حملة حربية، أمر ابن خلدون بمرافقته، فكانت الدائرة على جيش الوزير، فنجا بن خلدون بنفسه إلى تبسة، ثم سافر إلى قفصة، ثم إلى

---

[1] التعريف، ص 58.

[2] كتابة العلامة: هي وظيفة كتابية بسيطة لا تتجاوز كتابة عبارة (الحمد لله والشكر له) بالقلم الغليظ بين البسملة وما بعدها في كل خطاب أو مرسوم سلطاني (أنظر المصدر نفسه، ص 57).

[3] المصدر نفسه، ص 58.

بسكرة، حيث أمضى شتاء ذلك العام، ثم عزم ابن خلدون على السفر إلى تلمسان لكنه عاد إلى بجاية وأقام بها، إلى أن دعاه السلطان أبو عنان إلى فاس ليُلحقه بمجلسه، فوصل ابن خلدون إلى فاس سنة (755 هـ).

وفي فاس التقى ابن خلدون بأساتذته من العلماء، وصحبه رِفَاقُ درسه، فشجّعه ذلك على الاستزادة من العلم، وعن ذلك قال: " .. وعكفت على النظر والقراءة ولقاء المشيخة من أهل المغرب، ومن أهل الأندلس، الوافدين في غرض السفارة، وحصلت من الإفادة منهم على البغية"[1].

وقد ذكر ابن خلدون جملة من الشيوخ والعلماء الذين لقيهم بحضرة فاس، منهم:

أبو عبد الله محمد المقري (ت: 758 هـ)، وأبو عبد الله محمد بن أحمد الشريف الحسني العلوي التلمساني (ت: 771 هـ)، وأبو القاسم محمد بن يحي البرجي الغرناطي (ت: 786 هـ) وغيرهم من العلماء الذين ذاكرهم ابن خلدون وأجازوه[2].

وفي سنة (756 هـ) أُدخل بن خلدون السجن بأمر من السلطان أبي عنان لخبر نُمِي إليه، فبقي هناك حتى سنة (760 هـ).وطوال مدة سجنه، لم ينقطع ابن خلدون عن التضرّع إلى السلطان، وطلب عفوه، فقد كتب قصيدة طويلة يستعطفه بها، قال في مطلعها:

على أيّ حَـــالٍ للّيـــالـــــي أُعاتـــب ... وأيّ صُرُوفٍ للزّمـــــان أُغالـــــبُ
كفـــى حُزنـــــا أنّي على القُرب نازحٌ ... وأنّي علـــــى دَعْوَى شُهودي غَائبُ
وأنّـــي علـــــى حُكم الحوادث نـــازلٌ ... تُسالمنـــي طـــوْرًا وطـــورًا تُحاربُ[3]

فرقّ له قلب السلطان أبي عنان، وقبل أن يتّخذ قرار العفو منه، عاجله الموت سنة (759 هـ)،فبقي في السّجن حتى أُفرج عنه الوزير الحسن بن عمر حين استولى على السلطة.

ولما وصل السلطان أبو سالم إلى السلطة سنة (760 هـ) جعل ابن خلدون موضع ثِقته وعطفه، وعيّنه في وظيفة " كتابة سرّه، والتّرسيل عنه، والإنشاء لمخاطباته"[4].

---

[1] المصدر السابق، ص 61.

[2] المصدر نفسه، ص 62-67 و341.

[3] التعريف، ص 69.

[4] المصدر نفسه، ص 72.

وفي هذه الأثناء، تستقر حياة ابن خلدون بعض الشيء، فيبدع في كتابة الرسائل، وينهج فيها نهجا جديدا فيحرّرها من قيود السّجع التي كانت شائعة في ذلك العصر، وقد تحدّث عن ذلك قائلا: "وكان أكثرها (أي الرسائل) يَصْدُر عنّي بالكلام المُرسل. فانْفَرَدْت به يومئذ وكان مُستغربا عندهم بين أهل الصنعة"[1]. ويُرجع ابن خلدون سبب لجوءه إلى الكلام المُرسل إلى "خفاء العالي منها على أكثر الناس"[2].

كما أن الهدوء والاستقرار الذي نعم به ابن خلدون أثناء هذه الفترة، جعل شاعريته تَنْفتِحُ، فنظم الكثير من الشّعر، وفي هذا قال بصدق وموضوعية: "ثم أَخَذَتْ نفسي بالشعر، فانثال عليّ منه بحور، تَوسَّطَتْ بين الإجادة والقصور"[3]. ومن شعره قصيدته التي نظمها بمناسبة المولد النبويّ الشّريف لسنة (762 هـ)، وفيها يمدح السلطان أبي سالم ويعدّد مناقبه، والتي في مطلعها يقول:

أَسْرِفْن في هَجْـري وفـي تعذيبـي ... وأَطِلْـن موقف عبرتـي ونحيبـي
وأَبِيْن يـوم البيْـنِ وقْفَةَ سـاعة ... لوداع مشغـوف الفـؤاد كئيـب
لله عهـد الظاعنيـن وغـادروا ... قلبـي رهيـن صبابة ووجيـب[4]

وفيها يُعدّد معجزات الرسول (ص) ويمدحه، ويدعو الله المغفرة والثواب.ولابن خلدون قصائد أخرى، فطالعها في مواضعها.[5]

وفي سنة (763 هـ)، قرّر ابن خلدون الخروج من المغرب الأقصى، فصرف أولاده وزوجته إلى أخوالهم في قسنطينة، واختار هو الارتحال إلى الأندلس.

- الرحلة إلى الأندلس :

في عام (764 هـ) قصد ابن خلدون ميناء سبتة، متّجها إلى الأندلس وعن ذلك قال: " ... ولما أجمعتُ الرِّحلة إلى الأندلس، سِرْت إلى سبتة فرصة المجاز، وكبيرها يومئذ، الشريف أبو العباس أحمد بن الشريف الحسني، ... أنزلني ببيته إزاء المسجد

---

[1] المصدر السابق، ص 72.
[2] المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
[3] المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
[4] التعريف، ص 73-76.
[5] المصدر نفسه، ص 76-79

الجامع، وبلَوْتُ منه ما لا يُقدّر مثله من الملوك، وأركبني الحراقة ليلة سفري، يُباشر دَحْرجتها إلى الماء بيده إغْراباً في الفضل والمساهمة"[1].

وعند وصول ابن خلدون إلى غرناطة وصله كتابٌ من صديقه الوزير ابن الخطيب، يُرحّب به، ويُهنّئه بالقدوم، وقد بدأه بقصيدة، هذا مطلعها:

حَلَلْتَ حلـــول الغيث بالبلـد المُحْـل ... على الطائر الميمون والرحب والسَّهلِ

يمينـــا بمَنْ تعنُـو الوجـــوهُ لوجهه ... من الشّيـخ والطفـل المهدأ والكهـل

لقـد نشـأت لـديّ للُقيـــاك غبطة ... تُنسِي اغتبـاطـي بالشّبيبة والأهـــل

ثم يبدأ ابن الخطيب في التّرحيب بالقادم الجليل، بعبارات مسجوعة جميلة، وهي رسالة جميلة جدا[2].

وفي ثامن ربيع الأول عام (764 هـ) دخل ابن خلدون غرناطة، فاحتفى به سلطانها "أبو عبد الله الأحمر"[3] احتفاء عظيما، وعامله معاملة كريمة وضمّه إلى مجلسه، وقرّبه إليه.

وفي سنة (765 هـ)، خرج ابن خلدون من غرناطة إلى ملك اشبيلية في أمر السفارة، فنجح في سفارته نجاحا كبيرا وقام بزيارة البلاد التي عرفت أمجاد أجداده الأوّل ثم عاد إلى غرناطة[4].

ولما تحسّنت أحوال ابن خلدون وأحس بالاستقرار، بعث إلى أهله يستقدمهم، وعن ذلك قال: "... ولما استقر القرار، واطمأنت الدار، وكان من السلطان الاغتباط والاستئثار، وكَثُر الحنين إلى الأهل والتذكار، أمر (أي السلطان) باستقدام أهلي من مطرح اغترابهم بقسنطينة .. وقدِمْتُ بهم على الحضرة، بعد أن هيّأت لهم المنزل والبستان"[5].

وظن ابن خلدون أنه سيقيم نهائيا بالأندلس، لكن ما لبثت السعايات أن أفسدت ما بينه وبين ابن الخطيب،فقرّر ابن خلدون-تجنبا للتصادم مع صديقه ابن الخطيب-الخروج

---

[1] المصدر السابق، ص 84-85.

[2] المصدر نفسه، ص 86-87.

[3] هو الأمير أبو عبد الله محمد بن أبي الحجاج بن أبي الوليد بن نصر، وابن الأحمر لقب يطلق على أمراء الأسرة النصرية (أنظر: التعريف، ص 97).

[4] المصدر نفسه، ص 88-89.

[5] المصدر نفسه، ص 95.

إلى بجاية، فأذِنَ له السلطان في ذلك، وكتب له الوزير ابن الخطيب مرسوما بالتشييع، يفيض مدحا وثناء عليه، وهذا بعض ما جاء في هذا المرسوم: "هذا ظهير كريم، تضمّن تشييعا وترفيعا، وإكراما وإعظاما، وكان لعمل الصّنيعة ختاما، وعلى الذي أحسن تماما ... وأُعلن له بالقبول إن نوى بعد النوى رجوعا، أو آثر على الظعن المُزمع مقاما، أمر به، وأمضى العمل بمقتضاه وحسبه، الأمير عبد الله بن محمد ... للوليّ الجليس، الحظيّ المكين، المُقرّب الأوَدّ الأحبّ، الفقيه الجليل، أبي زيد عبد الرحمن ... وصل الله له أسباب السعادة، وبلّغه من فضله أقصى الإرادة"[1].

وهو مرسوم يفيض مدحا وإجلالا وإكبارا لابن خلدون، وقد أثني فيه ابن الخطيب عليه ثناء كثيرا وتأسّف فيه لفراقة أسفا كبيرا.

– الرحلة إلى بجاية:

وقد حدثنا ابن خلدونعن خروجه من الأندلس، ولحوقه ببجاية، ووصف لنا استقباله من قبل أميرها، واحتفاء الناس به، فقال: "... وركبت البحر من ساحل ألمرية منتصف ست وستين، ونزلت بجاية لخامسة من الإقلاع، فاحتفل السلطان صاحب بجاية لقدومي، وأركب أهل دولته للقائي، وتهافت أهل البلد عليّ من كُلّ أوْب يمسحون أعطافي، ويُقبّلون يدي، وكان يوما مشهودا ... وأصْبَحتُ من الغد، وقد أمر السلطان أهل الدولة بمُباكرة بابي، واستقللت بحمل ملكه، واستفرغت جهدي في سياسة أموره، وتدبير سلطانه، وقدّمني للخطابة بجامع القصبة"[2].

وظلّ ابن خلدون على هذا، حتى بدّد استقراره هجوم السلطان أبو العباس صاحب قسنطينة، بجيوشه على ابن عمه صاحب بجاية، فقتله ودخل بجاية. ففر ابن خلدون إلى بسكرة، وأقام هناك محاولا العودة إلى المطالعة والتدريس، وعن ذلك قال: "... وطال عليّ إغفال العلم، فأعْرَضْتُ عن الخَوْض في أحوال الملوك، وبعثت الهمة على المطالعة والتدريس"[3].

---

[1] المصدر السابق، ص 96-99.

[2] المصدر نفسه ص 104.

[3] المصدر نفسه، ص 112.

وبينما هو على ذلك، وصَلَتْهُ رسالة من الوزير ابن الخطيب[1] يتشوق فيها إليه، ومما جاء في هذه الرسالة: " ... أمّا الشّوق فَحَدِّث عن البحر ولا حرج، وأما الصبر فاسأل به أية دَرَجْ، بعد أن تجاوز اللّوى والمُنعرج، لكن الشّدة تعشق الفرج، والمؤمن ينشق من رَوْح الله الأرج"[2].

وقد توالت رسائل ابن الخطيب على ابن خلدون، يُعبّر له فيهاعن اشتياقه بعبارات تتفطر لها القلوب، وعرض فيها أحواله وأحوال بلاده الأندلس، وذكر فيها بعض مؤلفاته، كما طلب من ابن خلدون الردّ على رسائله في القريب العاجل، ورسائله هذه من أجود الرسائل وأروعها[3].

وقد أجاب ابن خلدون على هذه الرسائل، برسالة جميلة هذا بعض ما جاء فيها: "سيّدي مجدا وعُلوّا، وواحدي ذُخرا مَرْجُوّا، ومحلّ والدي برّا وحُنوّا، ما زال الشوق مُذْ نَأَتْ بي وبك الدار، واسْتَحْكم بيننا البِعَادِ يرعي سمعي أنباءك، ويُخيّل إليّ من أيدي الرياح تناول رسائلك، حتى ورد كتابك العزيز على استطلاع، وعَهْد غير مضاع، ووُدّ ذي أجناس وأنواع، فنشر بقلبي ميْتِ السُلُوّ، وحشر أنواع المسرّات، وقَدَ للقائك زناد الأمل، ومن الله أسأل الإمتاع بك قبل الفوت على ما يُرضيك، ويُسْنِي أمَانيّ وأمانيك."[4]

ويختتم ابن خلدون رسالته الطويلة بما نصه: "سيّدي وعمادي، ورب الصنائع والأيادي، والفضائل الكريمة الخواتم والبوادي، إمام الأمة، علم الأئمة، تاج الملّة، فخر العلماء الأجلة، عماد الإسلام، مُصطفى الملوك الكرام، نكتةُ الدول، كافل الإمامة تاج الدّول، الوزير أبو عبد الله ابن الخطيب، أبقاه الله"[5].

ورسالة ابن خلدون هذه من أجود الرسائل، لما تتميز به من انتقاء للألفاظ، وتعبير بالصورة، وميل إلى الإطناب، على أن ابن خلدون لم يذهب مذهب ابن الخطيب في حرصه الشّديد على السجع، وقد أشار ابن خلدون إلى ذلك بقوله: "... وتفاديت من السجع خشية القصور عن مساجلته (أي ابن الخطيب)، فلم يكن شأوه يُلحق"[6].

---

[1] وصلته هذه الرسالة سنة 769 هـ.

[2] التعريف، ص 113.

[3] المصدر نفسه، ص 124 إلى 130.

[4] المصدر نفسه، ص 131.

[5] المصدر نفسه، ص 136-137.

[6] المصدر نفسه، ص 130.

وتاريخ ابن خلدون في السنوات الخمسة التالية[1]، غاية في الاضطراب ، فقد وفد على السلطان أبو حمو موسى[2] بتلمسان، ثم همّ بالرحيل إلى الأندلس، لكن أُلقي القبض عليه بهُنّين بأمر من السلطان عبد العزيز[3] الذي استولى على تلمسان آنذاك. ثم أفرج عنه بعد ذلك. وقد حاول ابن خلدون التفرغ للدرس والانقطاع للعلم، لكن نداء السلطان قطع عليه هذه المحاولة، وفي ذلك قال : "فعمدت إلى رباط الشيخ الولي أبي مدين[4]، ونزلت بجواره مُؤْثرا التّخلي والانقطاع للعلم لو تُركت له، فاستدعاني (أي السلطان) من خلوتي، وأنا قد أخذت في تدريس العلم، واعتزمت على الانقطاع"[5]. فقرر ابن خلدون الخروج إلى بسكرة، فوصلته هناك رسالة من ابن الخطيب الذي فر إلى تلمسان من سلطانه، وقد أجابه ابن خلدون برسالة هذا بعض ما جاء فيها : "يا سيدي، ونعم ذخري الأبدي، والعروة الوثقى التي اعتلقتها يدي، أُسلّم عليك سلام القدوم على المخدوم، والخضوع للملك المتبوع-لا- بل أحييكم تحية المشوق للمعشوق، وأقرر ما انتم أعلم بصحيح عقدي فيه من حبي لكم، ومعرفتي بمقداركم، وذهابي إلى أبعد الغايات في تعظيمكم، والثناء عليكم، والإشادة في الآفاق بمناقبكم..."[6]

وقد تحدث ابن خلدون في هذه الرسالة عن أحواله، وما جرى له بعد مفارقته، وأعلم فيها ابن الخطيب أنه اطلع على أخباره من رسائله، وطلب منه أن يبلغ سلامه إلى نجله، وختم رسالته بالعبارة التالية: " ... والسلام الكريم يخصكم من المحب الشاكر الداعي الشائق شيعة فضلكم، عبد الرحمن بن خلدون، ورحمة الله وبركاته، في يوم الفطر عام اثنين وسبعين وسبع مائة"[7].

وفي سنة 774 هـ، خرج ابن خلدون من بسكرة إلى فاس، فوصلها في شهر جمادى في حالة يرثى لها، بعد أن انْتُهِبَ في الصحراء، وبينما هو "مقيم بفاس، في ظل

---

[1] أي من سنة 770 إلى 775 هـ.

[2] هو أبو حمو موسى الثاني بن يوسف بن عبد الرحمن بن يحي بن يغمراسن بن زيان ، أشهر سلاطين الدولة الزيانية ، كان أديبا وشاعرا وسياسيا محنكا، ت: 791 هـ (أنظر : زهر البستان،ج2، ص (1ظ)، المخطوط).

[3] هو أبو فارس عبد العزيز بن أبي الـياس بن أبي سالم المريني، أحد سلاطين المغرب الأقصى.

[4] هو أبو مدين شعيب بن الحسن الأندلسي، المعروف بأبي مدين الغوث التلمساني، كان وليا من أولياء الله الصالحين، ت: 594 هـ، ودفن بالعباد بتلمسان.(أنظر بغية الرواد، ج1، ص 124).

[5] التعريف، ص 144-145.

[6] المصدر نفسه، ص 149-150.

[7] المصدر نفسه، ص 157.

الدولة وعنايتها، عاكفا على قراءة العلم وتدريسه"[1] دون أن تكون له صلة بالحياة السياسية، حدث بها انقلاب أودى بسلطانها، فخرج ابن خلدون مرة أخرى إلى الأندلس سنة 776 هـ، بقصد القرار والدعة، لكن تأبى المؤامرات والدسائس إلا أن تلاحقه، أينما ذهب وأينما حل، فأُبعد عن الأندلس إلى تلمسان، ثم خرج منها إلى قبائل أولاد عريف، فتلقوه بالاحتفاء والتكريم، وأنزلوه بقلعة ابن سلامة[2].

فقرر ابن خلدون التفرغ للإنتاج العلمي، فقضى في قلعة ابن سلامة ما يقارب الأربعة أعوام، ولم يتمتع ابن خلدون خلال عمره الطويل بحياة الهدوء إلا في هذه الأعوام الأربعة، عندما اعتزل الحياة العامة، وانزوى في قلعة ابن سلامة، فكانت هذه السنوات الأربع، أثمن وأخصب سني حياته، من حيث النشاط الفكري والعلمي لأن المقدمة التي ضَمِنَتْ له الخلود بين عظماء رجال الفكر في العالم، كانت من نتاج هذه الحياة المنزوية في هذه القلعة.

وبدأ ابن خلدون في هذه القلعة المنزوية، إنجاز مؤلفه التاريخي الشهير، (كتاب العبر)، فبدأ بكتابة المقدمة، وقد انتهى من كتابتها في خمسة أشهر فقط، وعن ذلك، قال "فأقمت بها (أي القلعة) أربعة أعوام، متخليا عن الشواغل كلها، وشرعت في تأليف هذا الكتاب، وأنا مقيم بها، وأكملت المقدمة منه على ذلك النحو الغريب، الذي اهتديت إليه في تلك الخلوة فسالت فيها أنابيب الكلام والمعاني على الفكر، حتى امتخضت زبدتها وتألفت نتائجها".[3]

ثم أخذ ابن خلدون يراجع ما كتبه، ويواصل الكتابة، حتى انتهى من الشكل المبدئي لكتابه، فوصل في عمله إلى مرحلة أحس فيها بحاجته الشديدة إلى المراجع وقد عبر عن ذلك قائلا: " ... وقد فرغت من مقدمته، وتشوقت إلى مطالعة الكتب والدواوين التي لا توجد إلا بالأمصار، بعد أن أَمْلَيْت الكثير من حفظي، وأردت التصحيح والتنقيح"[4]. فقرر ابن خلدون الخروج إلى تونس فَغَادر قلعة ابن سلامة سنة 780 هـ ، مُتَجّها إلى تونس، فوصلها في شهر شعبان من نفس السنة، وعزم هناك على أن يلقي عصا التسيار، فقام

---

[1] المصدر السابق، ص 243.

[2] قلعة ابن سلامة، أو بني سلامة، وتسمى قلعة تاوغزوت، تقع ما بين وهران ومستغانم.

[3] التعريف، ص 246.

[4] المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

بالتدريس واتسعت حلقة الدرس الخاصة به، وانتقل الطلبة إليها من الحلقات الأخرى، ما أثار عليه دسائس المتآمرين، فكثرت السعايات فيه، فعزم على مغادرة تونس من جديد، برسم الحج إلى بيت الله الحرام.[1]

فانطلق ابن خلدون إلى ميناء تونس، ليتوجه إلى الاسكندرية، وقد وصف حالة الوداع، قائلا: "وخرجت إلى المرسى والناس متسايلون على إثري، من أعيان الدولة والبلد وطلبة العلم، فودعتهم وركبت البحر منتصف شعبان من السنة"[2].

- الرحلة إلى مصر :

لما وصل ابن خلدون إلى الاسكندرية، أقام بها حوالي الشهر، يُهيّئ أسباب الحج، فلم يتم له ذلك، فقرر السفر إلى القاهرة في أواخر سنة (784 هـ).

فلما دخل ابن خلدون إلى القاهرة، انبهر بجمالها، وكثرة بنيانها وسكانها، وضخامة مساجدها، وقد وصف ذلك، قائلا: " ... فانتقلت إلى القاهرة لأول ذي قعدة فرأيت حضرة الدنيا، وبستان العالم، ومحشر الأمم، ومدرج الذر من البشر، وإيوان الإسلام، وكرسي الملك، تلوح القصور والأووين في جوه، وتزهر الخوانك[3] والمدارس بآفاقه، وتُضيء البدور والكواكب من علمائه، قد مثل بشاطئ بحر النيل نهر الجنة، ومدفع مياه السماء، يسقيهم النهل والعلل سَيْحُهُ، ويجني إليهم الثمرات والخيرات ثجة[4]". [5]

وقد لقي ابن خلدون في القاهرة ترحيبا حارا، واستقبالا رائعا، خصوصا أن شهرته كانت سبقته إلى هناك، فاجتمع طلبة العلم حوله، يريدون الأخذ منه والانتفاع بعلمه، وقد حدثنا عن ذلك، فقال : "ولما دخلتها (أي القاهرة)، أقمت أياما، وانثال عليّ طلبة العلم بها، يلتمسون الإفادة مع قلة البضاعة، ولم يوسعني عذرا، فجلست للتدريس بجامع الأزهر منها"[6].

---

[1] المصدر السابق، ص 247 إلى ص 258.

[2] المصدر نفسه، ص 263.

[3] الخوانك: أصلها الخوانق، ومفردها : خانقاه، ونعني: الزاوية والرباط.

[4] الثج: الطب الكثير، وفي القرآن (وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا) (أنظر : مختار الصحاح، ص 62، مادة – ث ج ج).

[5] التعريف، ص 264-265.

[6] المصدر نفسه، ص 266.

فقد وجد ابن خلدون في القاهرة، جوا مناسبا، ساعده على الإنتاج العلمي، حيث أن الأوضاع السياسية والحضارية فيها كانت تختلف اختلافا كليا، عما عهده في المغرب، كما أن المناخ العلمي السائد، ساعده على استثمار حصيلته العلمية ومضاعفاتها.

فبدأ ابن خلدون حياته في مصر، بأن اتخذ من أروقة الجامع الأزهر مدرسة يلتقي فيها بتلامذته فيها بتلامذته ومريديه، وبعد ذلك، عينه السلطان برقوق[1] لتدريس الفقه المالكي بالمدرسة القمحية[2]. وفي سنة (768 هـ)، عيّنه قاضيا للقضاة المالكية، فتعرض ابن خلدون بسبب هذا المنصب لكثير من الوشايات والدسائس، وظل المنصب يتأرجح بينه وبين خصومه، حتى انه تولى هذا المنصب، وأُبعد عنه ثمانية مرات في نحو أربع سنين[3]، كما ساعد على عزله من منصب القضاء، صرامته في أحكامه وعدالته، لا تأخذه في الله لومة لائم[4].

وقد حاول ابن خلدون جهده لإصلاح الفساد الذي طال جهاز القضاء، فعمل على فضح ألاعيب القضاة، وقد تحدث عن ذلك فقال:" ... فصدعت في ذلك بالحق، وكبحت أعنّة أهل الهوى والجهل، ورددتهم على أعقابهم ... قد اتخذوا الناس هزؤا، وعقدوا المجالس مثلبة للأعراض ... فقطعت الحبل في أيديهم، وأمضيت أحكام الله فيمن أجاروه"[5]. لكن صرامة ابن خلدون، كانت سببا في إثارة السخط عليه من كل جانب، وقد صرّح بذلك قائلا:" ... فغدّوا على حرد قادرين، ودسّوا لأولياء السلطان وعظماء الخاصة ... والله مجازيهم ومسائلهم، فكثر الشغب عليّ من كل جانب، وأظلم الجو بيني وبين أهل الدولة"[6].

وكان ابن خلدون عندما استقر به الحال في القاهرة، بعث يستقدم أهله من تونس، ولما كانوا في طريقهم إلى الاسكندرية في البحر، غرقت السفينة، ففقد ابن خلدون زوجته

---

[1] الأمير برقوق، مملوك الملك الناصر العباسي، تملّك مصر والشام والحجاز، تولى ذلك سنة 784 هـ (أنظر ذرة الحجال ، ج1، ص 217).

[2] أنشأها صلاح الدين الأيوبي، وقفها على المالكية يتدارسون فيها الفقه، ووقف عليها أراضي تخل القمح، فسميت لذلك بالقمحية، أنظر: التعريف، ص 305 (الهامش).

[3] المصدر نفسه، ص 305، 383، 429، 430.

[4] يرى طه حسين أن التزام ابن خلدون الصرامة في أحكامه القضائية، إنما هو حب التظاهر والشهرة، فكيف يعرّض شخص نفسه لغضب السلطان، وسخط العامة والخاصة، من أجل أنه يريد الشهرة ؟ .

[5] التعريف، ص 276.

[6] المصدر نفسه، ص 278.

وأولاده جميعا، ففجع لذلك فاجعة كبيرة، فطلب السلطان أن يُعفِيَهُ من وظائفه، فأعفاه، فظل بعد ذلك: "عاكفا على تدريس علم، أو قراءة كتاب، أو إعمال قلم في تدوين أو تأليف"[1].

- الرحلة إلى الحجاز:

مكث ابن خلدون في القاهرة معتزلا الوظائف والمناصب مدة ثلاث سنين ، وفي عام (789 هـ)، اعتزم السفر إلى الحجاز لأداء فريضة الحج، فخرج من القاهرة، وركب من بحر السويس، فوصل إلى الينبع، ثم اتّجه من هناك إلى مكة، ودخلها في الثاني من ذي الحجة من نفس العام، وقضى فريضة الحج ثم عاد إلى مصر فدخلها سنة (790 هـ)، وبقي معتزلا الحياة العامة، مُلتزما كسر بيته، مُتَمَتِّعًا بالعافية لابسا بُرد العزلة، عاكفا على قراءة العلم وتدريسه[2].

وفي شهر محرم من عام 791 هـ، عُيّن ابن خلدون للتدريس بمدرسة "صرغمتش"[3] فألقى في اليوم الأول من تدريسه خطبة بليغة، هذا بعض ما جاء فيها:" الحمد لله إجلالا وإعظاما، واعترافا بحقوق النّعم والتزاما، واقتباسا للمزيد منها واغتناما، وشكرا على الذي أحسن وتماما، ويسع كل شيء رحمة وإنعاما، وأقام على توحيده من أكوانه ووجوده آيات واضحة وأعلام، وصرف الكائنات في قبضة قدرته ظهورا وخفاءا وإيجادا وإعداما، وأعطى كل شيء خلقه ثم هداه إلى مصالحه إلهاما، وأودع مقدور قضائه في مسطور كتابه، فلا يجد محيصا ولا مراما."[4]

ويستمر ابن خلدون في خطبته على هذا النسق، وقد أكثر فيها من السّجع، رغم أنه لم يكن يُحَبّذ هذه الطريقة في النثر.

وقد انتصب ابن خلدون لتدريس كتاب "الموطأ" للإمام مالك. وقد أعطانا لمحة عن درسه الأول، وعن كيفيته في ذلك، فبدأ بالتعريف بكتاب الموطأ، وإظهار مكانه من الأمانة والديانة، ومنزلته من كتب الحديث، ثم عرّف بالإمام مالك بن أنس، وذكر نسبه،

---

[1] المصدر السابق، ص 280.

[2] المصدر نفسه، ص 281-282 و 323.

[3] تنسب هذه المدرسة إلى بانيها الأمير سيف الدين صرغمتش، ت: 759 هـ.

[4] التعريف، ص 323 - 324.

ومن أخذ عنه من التابعين. كما أورد أقوال العلماء في شخصية الإمام مالك، ومُؤلَّفه الموطأ، ثم ذكر العلماء الذين رووا عنه، والأسانيد في ذلك.[1]

وقد ذكر ابن خلدون سنده في كتاب الموطأ، الذي يتصل بيحي بن يحي، وهو الذي "رحل إلى مالك بن أنس من الأندلس، وأخذ عنه الفقه والحديث. وكان فيما أخذ عنه الموطأ، وأدخله الأندلس والمغرب، فأكبَّ الناس عليه، واقتصروا على روايته دون ما سواها"[2].

- الرحلة إلى فلسطين

في عام (802 هـ)، سافر ابن خلدون إلى فلسطين لزيارة بيت المقدس، ومشاهدة آثاره، وقد وصف زيارته للأماكن المقدسة هناك، فقال: " ... ووصلت إلى القدس ودخلت المسجد، وتبركت بزيارته، والصلاة فيه، وتَعفّفت عن الدخول إلى القُمامة[3]، لما فيها من الإشادة بتكذيب القرآن، إذ هو بناء أمم النصرانية على مكان الصليب بزعمهم، فنَكِرَتْهُ نفسي، ونَكِرْتُ الدخول إليه، وقضيت من سنن الزيارة ونافلتها ما يجب، وانصرفت إلى مدفن الخليل عليه السلام، ومررت في طريقي إليه ببيت لحم، وهو بناء عظيم على موضع ميلاد المسيح، شيَّدت القياصرة عليه بناء بسماطين من العمد الصَّخور، منجدة مصطفة، مرقوما على رؤوسها صور الملوك القياصرة، وتواريخ دولهم، مُيّسرة لمن يبتغي تحقيق نقلها بالتراجمة العارفين لأوضاعها، ولقد يشهد هذا المصنع بعظيم ملك القياصرة، وضخامة دولتهم"[4].

وبعد أن أتم ابن خلدون زيارته لبيت المقدس، عاد إلى مصر، وعكف على التدريس، إلى أن كان الغزو التتري للشام سنة (803 هـ) بقيادة تيمور لنك، وكانت الشام وقتئذ تابعة لسلطان مصر، فخرج سلطانها في عساكره لصدّ الجيش التتري عن دمشق، وقد اصطحب معه مجموعة من الفقهاء والقضاة من بينهم عبد الرحمن ابن خلدون[5]. وبعد

---

[1] المصدر السابق، ص 323.

[2] المصدر نفسه، ص 335.

[3] يقصد كنيسة القيامة، التي يزعم النصارى أنها بنيت على المكان الذي صُلب فيه المسيح عليه السلام.

[4] التعريف، ص 386-387.

[5] المصدر نفسه، ص 405.

اشتباك قصير بين الجيشين، بدأت المفاوضات، فَانْتُدب ابن خلدون لهذا العمل، فكان رسول الشام والعرب إلى الغازي التتري تيمور لنك.

– اللقاء التاريخي بين ابن خلدون وتيمور لنك:

تحدث ابن خلدون عن اللقاء الذي جمعه بسلطان المغول، فقال: "... وبِتْنَا تلك الليلة على أُهْبَة الخروج إليه... وبكرت سحرا إلى جماعة القضاة عند الباب، وطلبت الخروج أو التدلّي من السور... ودلّوني من السور فوجدت بطانته (يعني تيمور لنك) عند الباب، فحيّيتهم وحيّوْني، وفدّيت وفدّوني، وقدم لي شاه ملك مركوبا، وبعث معي من بطانة السلطان من أوصلني إليه ... ودخلت عليه بخيمة جلوسه، متكئا على مرفقه ... فلما دخلت عليه فاتحته بالسلام، فرفع رأسه، ومدّ يده إليّ فقبلتها، وأشار بالجلوس فجلست حيث انتهيت، ثم استدعى من بطانته الفقيه عبد الجبار بن النعمان[1]، فأقعده يترجم ما بيننا، وسألني من أين جئت؟"[2] ثم دار حوار بين ابن خلدون وتيمور لنك، فسأله عن معنى قولهم، المغرب الجواني، فأجابه ابن خلدون بما معناه: "هو في عرف خطابهم (أي المصريين) معناه الداخلي، أي الأبعد، لأن المغرب كله على ساحل البحر الشامي[3] من جنوبه، فالأقرب إلى هنا برقة، وإفريقية، والمغرب الأوسط: تلمسان وبلاد زناتة، والمغرب الأقصى، فاس ومراكش وهو معنى الجواني".[4]

ثم سأله تيمور لنك عن بعض مدن المغرب الأقصى، كفاس وطنجة وسبتة وسجلماسة، فوصف له ابن خلدون مواقعها . ولما أكمل له وصفها، طلب منه تيمور لنك أن يسجل له وصف ذلك في كتاب، فأجاب ابن خلدون طلبه، ووَثّق له ذلك بإيجاز في اثنتا عشرة كراسا"[5].

وقد وصف ابن خلدون سلطان التتر هذا ، وصفا لطيفا موجزا، فقال: " وهذا الملك "تمر"، من زعماء الملوك وفراعنتهم، والناس ينسبونه إلى العلم، وآخرون إلى اعتقاد الرفض، لما يرونه من تفضيله لأهل البيت، وآخرون إلى انتحال السحر، وليس من ذلك

---

[1] هو عبد الجبار بن النعمان المعتزلي، من فقهاء الحنفية بخوارزم أحد خواص تيمور الذين طافوا معه البلاد، ت: 808 هـ (المصدر نفسه، ص 410، الهامش).

[2] المصدر نفسه، ص 409-410.

[3] يقصد به البحر الأبيض المتوسط.

[4] التعريف، ص 411.

[5] المصدر نفسه، ص 412.

كله في شيء، إنما هو شديد الفطنة والذكاء، كثير البحث واللجاج. بما يعلم وما لا يعلم، عمره بين الستين والسبعين، وركبته اليمنى عاطل من سهم أصابه في الغارة أيام صباه، على ما أخبرني، فيجرها في قريب المشي، ويتناوله الرجال عند طول المسافة"[1].

وبعد أن فشلت المفاوضات، وتمكن المغول من الاستيلاء على دمشق، لم يجد ابن خلدون بُدًّا من البقاء في دمشق، فقد أحس أنه فشل في مهمته التفاوضية، لذا قرر العودة إلى مصر، فوصلها في شعبان من سنة 803 هـ.[2]

ولما عاد ابن خلدون إلى مصر، وُلّي وظيفة القضاء ثلاث مرات، يولّى ثم يعزل، وبقي على ذلك حتى سنة (807 هـ).[3]

وفي سنة 808 هـ[4]، ترجّل ابن خلدون عن صهوة جواده، وألقى عصا تسياره أخيرا، وأسلم روحه إلى بارئها، بعد طول معاناة، وبعد حياة مليئة بالأحداث والاضطرابات، وبعد أن أفنى زهرة عمره في التنقل والترحال لا يتوقف ولا يكل، فوافته المنية وقد بلغ من العمر 74 عاما، قضى 53 عاما منها في الترحال والأسفار، وكأنه المقصود بقول القائل: ولد الإنسان راحلا، ودفن بالقاهرة بمقابر الصوفية.

المبحث الرابع: ابن قنفذ القسنطيني (740- 810 هـ):

1- أوليته:

هو أبو العباس أحمد بن حسن بن علي الخطيب، المشهور بابن القنفذ القسنطيني، ولد في حدود سنة (740 هـ) بقسنطينة.[5]

كان من عائلة اشتهرت بالعلم والصلاح، بدأ دراسته على والده، وعلى جده لأمه، ثم اتجه إلى فاس سنة (759 هـ)، وسنه لا يتجاوز العشرين، وقد ظهرت نجابته في كل العلوم التي درسها، وقد تتلمذ في فاس وغيرها من مدن المغرب الأقصى على كبار

---

[1] المصدر السابق، ص 428.

[2] المصدر نفسه، ص 429 .

[3] المصدر نفسه، ص 424.

[4] تعريف الخلف، الحفناوي، ج2، ص 27-28.

[5] عن ترجمة ابن قنفذ،انظر : (تعريف الخلف برجال السلف ، ج1، ص 33-34) و(نيل الابتهاج، ص 75 وما بعدها) و(ذرة الحجال، ج1، ص 121 وما بعدها).

الأساتذة والشيوخ، فحصّل علوما كثيرة، واعتنى بلقاء الصالحين، كما ولي وظيفة القضاء بدكالة.

2- شيوخ ابن قنفذ:

لقد أخذ ابن قنفذ عن جماعة كبيرة من الشيوخ في رحلته إلى المغرب الأقصى، وقد ذكر بعضهم في مؤلفاته، ومن أشهر شيوخه، نذكر:

- أبو محمد عبد الله الوانغيلي الفاسي (ت: 779 هـ)[1]، أخذ عنه الأصلين بفاس.
- الشيخ محمد بن أحمد بن مرزوق التلمساني (ت: 781 هـ)[2].
- الشيخ أبو عبد الله محمد بن أحمد الشريف التلمساني (ت: 771 هـ)[3].

وهكذا قضى ابن قنفذ فترة تواجده بالمغرب الأقصى في أخذ العلم من منابعه، إلى أن صار من العلماء المبرزين، وأسندت غليه وظيفة القضاء. وكان ابن قنفذ أثناء مقامه بفاس، يخرج أيام العطل للغاية التي كان يقصدها من ملاقات رجال التصوف، وزيارة أضرحة الأولياء والصالحين.

3- مؤلفات ابن قنفذ[4]:

وضع ابن قنفذ عدة مؤلفات، تدل على مشاركته في كثير من الفنون والعلوم، كالتوحيد، والفقه، والطب، والفلك. ومن كتبه الموجودة، نذكر:

- "شرف الطالب في أسمى المطالب": وهو شرح للمنظومة المُسمَّاة: (القصيدة الغزلية في ألقاب الحديث) لأبي العباس أحمد بن فرج الإشبيلي، وهي في مصطلح الحديث.
- "كتاب الوفيات": يحتوي على تراجم قصيرة للعلماء والأعيان، مرتبة على القرون، وعلى تواريخ الوفيات.
- "الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية": وهو تاريخ للدولة الحفصية.

---

[1] نيل الابتهاج، ص 72-73.

[2] تعريف الخلف، ج1، ص 16-17.

[3] المصدر نفسه، ج2، ص 179.

[4] عن مؤلفات ابن قنفذ، انظر : أنس الفقير وعز الحقير، ابن قنفذ القسنطيني تحقيق: أحمد الفاسي وأدولف فور، ص: خ، د،ذ، ر (المقدمة)، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، 1963م.

- " طبقات علماء قسنطينة".
- "أنس الفقير وعز الحقير": ذكر فيه ابن قنفذ رجال من أهل التصوف، كأبي مدين شعيب وأصحابه، كما ذكر فيه من لقي من الصالحين. أما كتبه التي لا تزال ضائعة، نذكر منها:
- "أنوار السعادة في أصول العبادة".
- "هداية السالك في ألفية ابن مالك".

ومن نظم ابن قنفذ ، قوله:

وبعيـــدٍ إنْ فكَّـرْتَ فيـــــه رَأيتَـهْ قد دار بيـــن قواعـــــدٍ مُتتاليـــهْ
فاطلُبْـهُ فـي القـــرآن أو فـــي سُنَّة واعضُده بالإجمـــاع واترُك تَـاليهْ[1]

4- رحلة ابن قنفذ:

لقد ترك لنا ابن قنفذ إشارات قليلة عن رحلته إلى المغرب الأقصى، وقد سجل ذلك في كتابه المسمى (أُنس الفقير وعِزُّ الحقير). وقد اقتصر فيه على ذكر من لقيه من العلماء والصالحين وعلى ذكر الأضرحة التي زارها كما أورد كرامات هؤلاء الصالحين، وحثّ القارئ على الاعتقاد بها، فهم الذين:

مَحبَّتـــهم فَرْضٌ ورُؤيتُـــهم هُدى وللدِّيـــن مِنْـهُم ألسُـنٌ وقلُـــوبُ[2]

فرحلة ابن قنفذ من نوع الرحلات الزيارية التي يقصد صاحبها من سفره زيارة أضرحة الأولياء والصالحين، وملاقات الأحياء منهم والمتعبدين.وكتاب (أنس الفقير) الذي سجَّل فيه ابن قنفذ شيئا من رحلته، "ليس على نمط الرحلات التي يذكر فيها مؤلفها ابتداء رحلته مع التنصيص على ذكر المراحل، وتواريخ الدخول والخروج من المدن والقرى التي يمر بها، فإن القصد من السياحة التي قام بها ابن قنفذ، كان هو زيارة أولياء وقته، والوقوف على أضرحة الصالحين"[3].

---

[1] ذرة الحجال، ج1، ص 123.

[2] أنس الفقير ، ص 32.

[3] المصدر نفسه، ص أ (مقدمة المحقق).

فقد خرج ابن قنفذ من قسنطينة سنة (759 هـ)، للقيام برحلة علمية وزياريّة إلى المغرب الأقصى، ولم يذكر تفاصيل رحلته كاملة، إنما اكتفى بذكر بعض محطّاتها. فنجده في سنة (761 هـ)، يزور أحد أحفاد الشيخ أبي يعزى تبرُّكا به وبجده الولي الصالح. وفي سنة (763 هـ) نجده بمدينة آسفي، يزور قبر الشيخ الصوفي أبو محمد صالح – أحد الأقطاب الروحيين– وقد دخل مدينة "سلا" مرارا، وكان في كل مرة يقصد وليّها الشهير أحمد بن عاشر، وقد أخذ عنه، وتتلمذ عليه. كما حضر ابن قنفذ في سنة (769 هـ)، شبه مؤتمر صوفي بناحية دكّالة، هذا التجمع الذي يقصده كل المنتمين لهذه الحركة، كما زار ابن قنفذ أماكن كثيرة من المغرب الأقصى، بقصد الالتقاء بالصالحين، والتبرك بلقياهم.

فلم يذكر ابن قنفذ مراحل رحلته بالتسلسل، إنما ذكر ذلك حسب مناسبة زياراته المتعددة، وهنا ذكر بعض نصوص رحلته انتقيتها من مؤلفه، (أُنس الفقير وعزّ الحقير).

5– نصوص من رحلة ابن قنفذ:

لقد اهتم ابن قنفذ في رحلته بزيارة الأولياء والصالحين، وجمع أخبارهم، والحديث عن شيوخ الصوفية وطوائفهم، فقد حدثنا ابن قنفذ عن تعدد طوائف المتصوفين في المغرب الأقصى، فقال: "... فوجدتها متعددة باعتبار تعدد الأشياخ، وأقرب ما ترجع إليه ستة:

- الشُّعيْبيون: وهم طائفة أبي شعيب آزمور، من أشياخ أبي يعزى.
- الصّنهاجيون: من طائفة بني أمغار من بلد تيطنفطر من أقران بني شعيب.
- الماجريّون: وهم طائفة أبي محمد صالح، ومنهم الدكاليون.
- الحُجّاج: ولا يدخل في جمعهم إلّا من حج بيت الله الحرام.
- الغماتيّون: وهم طائفة الشيخ أبي زيد عبد الرحمن الهزميري.
- الحاحيُّون: منهم جملة من جبل درن، وهو الجبل العظيم الذي ليس له على وجه الأرض مثله في الارتفاع والمياه والخصب، وهذه الطائفة شيخها أبي زكرياء يحي بن أبي عمرو بن يحي الحاحي". [1]

[1] أنس الفقير، ص 61-66.

وقد زار ابن قنفذ الطائفة الحاحية بمراكش، فكتب عن ذلك يقول: "... وقد دَخَلْتُ تَانَشْنَاشَتْ، وهي موضع فريق من حفدته[1] في أحواز مراكش، سنة ثمان وستين وسبعمائة، ولقيت بها أخيارا، ورأيت فيها شيخا منقطعا في مغارة للعبادة، والناس يَتَبَرّكُون به، ولا ينْصرِف أحد حتى يناوله سماطا من تحت رأسه ..."[2].

وقد حضر ابن قنفذ تجمعا للصوفية يقيمونه كل عام بدكالة فوصفه قائلا: "... ولقد حضرت مع جملة من هذه الطوائف مواطن عدة، منها زمان اجتماع فقراء المغرب الأقصى، على ساحل البحر المحيط،جوف إقليم دكالة، بين بلد آسفي وبلد تيطنفطر، ومعنى هذا الاسم : عين باردة، زمان قضائي بدكالة. وهي أرض مستوية طولها مسيرة أربعة أيام وكذلك عرضها. ووجدت فيها خمسة وعشرين مدرسا، وليس بها نهر ولا عين إلا آبار طيبة. وكان الاجتماع في شهر ربيع الأول المبارك الأسعد الأنور، سنة تسع وستين وسبعمائة، وحضر من لا يحصى عدده من الفضلاء، ولقيت هناك من أخيارهم وعلمائهم وصلحائهم ما شردت به عيني بسبب كثرتهم"[3].

وقد تعجب ابن قنفذ من كثرة الأولياء والصالحين في هذا الموضع، وكيف كان يأتي العليل الذي لا يقوى على المشي، فيبرأ ببركة هؤلاء، وقد تحدث عن ذلك قائلا: "... ووردت عليهم أصحاب العلل المزمنة كالمُقعدين وغيرهم، ورأيتهم يتزاحمون في حلَق الذكر، والمريض يتضرع ويرغب في صلاح جسده كأنه يطلب قوته، فيقوم من يأخذ بيد المريض، ويصرفه وقد رجعت إليه صحته، ومنهم من يضربه بطرف كسائه، فيقوم كأنه حُلّ من عقال"[4].

وقد حدثنا ابن قنفذ عن كثير من العلماء والصلحاء الذين لقيهم بالمغرب الأقصى، فعن الذين لقيهم بفاس، قال:

---

[1] يقصد حفدة الشيخ يحي الحاحي، شيخ الطريقة الحاحية.

[2] أنس الفقير، ص 65.

[3] المصدر نفسه، ص 71.

[4] المصدر نفسه، ص 71.

- ورأيت بفاس الشيخ الصالح الزاهد، عبد الله المشنزائي، من أرض دكالة، وهو من الزاهدين في الدنيا، رأيت لباسه تِلّيسا، ولا يجلس إلا على الأرض بغير حائل، ولا يوسد إلا الحجر.[1]
- ورأيت بفاس الفقيه الزاهد أبا عبد الله محمد الجناني، كان يبرني كثيرا ويدعو لي، ولباسه فيما رأيت إما عبادة من تليس، أو جبة من صوف، وكان يطالع دائما إحياء علوم الدين، وما رأيته ضاحكا قط، وما رأيته رافعا بصره في طريق قط، رافقته بالمغرب ثمانية عشر عاما، لم تختلف علي في هذه المدة حالته بوجه[2].
- ورأيت بفاس الشيخ أبا علي عمر الرجراجي، شهرته بالصلاح أكثر من شهرته بالعلم، لازمته وقرأت عليه كتاب الحوفي في الفرائض[3]، وحضرت معه مجالس العلم، وانتفعت به كثيرا.[4]
- ورأيت منهم بفاس، الخطيب الشهير أبا عبد الله محمد بن عباد الرندي، وكان والده من الخطباء والفصحاء والنجباء، ولأبي عبد الله هذا، عقل وسكون، وزهد بالصلاح مقرون، وكان يحضر معنا مجلس شيخنا أبي عمران موسى العبدوسي، رحمه الله، وكنت إذا طلبته للدعاء احمر وجهه، واستحيا كثيرا[5].
- ورأيت بفاس، المرأة الصالحة، مؤمنة التلمسانية، وتبركت بها، وما زالت على ما تقرر عندي، تخصني بالدعاء في ظهر الغيب، قصدتها في بعض أشهر انقطاعها، فوقفت إليّ وكلّمتني. ورأيتها مرة وعليها جُبّة صوف، وشيب رأسها ظاهر على جبهتها.
- كانت تقول لي: "أريد أن أموت بعباد تلمسان"، فلما قربت منيتها يُسّرَّ لها السفر إلى تلمسان، فسافرت وتوفيت بها.

---

[1] آداب المتعبدين، ص 75.

[2] المصدر نفسه، ص 76 بتصرف.

[3] الحوفي، كتاب في الفرائض، صاحبه أبو القاسم أحمد بن خلف الحوفي، ت: 588 هـ.

[4] المصدر نفسه، ص 77 بتصرف.

[5] المصدر نفسه، ص 80 بتصرف.

كما حدثنا ابن قنفذ عمن لقي بمدينة "سلا" وغيرها من مدن المغرب الأقصى ، فقال:

- ورأيت منهم بسلا عددا كبيرا، منهم: الخطيب أبو الحسن علي بن أيوب، ورأيت بها الشيخ عبد العزيز الصنهاجي.
- ورأيت منهم، بنصنهاجة آزمور، الشيخ أبا محمد عبد الواحد الصنهاجي، وزوجته الصالحة فاطمة، وتبركت بها، وحصلت لي الغنيمة التامة بدعائها.
- ورأيت منهم بالمغرب الأقصى في طرق سكسوية من جبال درن، الصالحة عزيزة السَّكسويَّة، وتبركت بها، وجلست معها، ولها أتباع من الرجال، وأتباع من النساء، وكل طائفة اشتغلت بالعبادة، وهي فصيحة جدا في أجوبتها وأوامرها ووعظها، ورأيت الناس يتزاحمون عليها.[1]

وبعد أن يورد ابن قنفذ أسماء من لقي بالمغرب الأقصى من الصلحاء والزهاد، يحذر من عواقب إنكار كراماتهم، فيقول:

"وإياك أن تذُمّ من ترى منهم، فإن ذلك سببا لحرمانك".[2]

وقد تحدث ابن قنفذ عن سنده في الرواية عن الشيخ أبي مدين شعيب، وعن سلسلته في لبس الخرقة. فمثلا كتاب "المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى"، أخذه ابن قنفذ عن شيخه أبي علي حسين بن خلف الله بن باديس القسنطيني (ت: 784 هـ)، الذي أخذه عن أبي محمد عبد الله بن برطلة (ت: ؟)، الذي أخذه عن أبي موسى الجزولي النحوي (ت: 661 هـ)[3]، الذي أخذه عن أبي إسحاق بن عبد الرفيع (كان حيا سنة 628 هـ)، الذي أخذه عن أبي عبد الله محمد بن حمادو الصنهاجي (كان حيا سنة 581 هـ)، الذي أخذه عن الشيخ أبي مدين شعيب (ت: 594 هـ) الذي ألفه[4].

أما عن لبسه الخرقة، فسلسلة ابن قنفذ في ذلك تصل إلى رسول الله (ص)، فقد ألبسه إياها الشيخ أبو موسى القروي، الذي ألبسه إياها والده بمكة، الذي ألبسه إياها بلال خادم أبي مدين شعيب، الذي ألبسه إياها أبو بكر بن العربي، الذي ألبسه إياها أبو حامد

---

[1] أنس الفقير، ص 82 إلى ص 87.

[2] المصدر نفسه، ص 89.

[3] هو أبو موسى عيسى بن عبد العزيز الجزولي البربري، كان غماما في علم العربية، من كتبه الجزولية والأمالي في النحو (أنظر: وفيات ابن قنفذ، ص 307).

[4] المصدر نفسه، ص 94.

الغزالي، الذي ألبسه إياها إمام الحرمين أبو المعالي، الذي ألبسه إياها أبو طالب المكي، الذي ألبسه إياها الجُنَيد، الذي ألبسه إياها سُرَيّ السَّقطي، الذي ألبسه إياها معروف الكَرْخي، الذي ألبسه إياها داوُد الطائي، الذي ألبسه إياها حبيب العجمي، الذي ألبسه إياها الحسن البصري، الذي ألبسه إياها عليّ بن أبي طالب، الذي ألبسه إياها رسول الله صلى الله عليه وسلم.[1]

وبعد أن أقام ابن قنفذ بالمغرب الأقصى ما يقارب الثمانية عشر عاما، قضاها في طلب العلم ونشره، ولقاء الصالحين، وزيارة قبور الموتى منهم، عاد في سنة 776 هـ إلى بلاده وقد مرّ على تلمسان في طريق عودته، فزار ضريح الولي الصالح أبي مدين شعيب، وتبرك به، ومكث أياما بالعباد، ذلك المنظر الشريف، والبقعة المباركة التي وطئها الصالحون، وسكنها المتعبدون. وقد وصف ابن قنفذ ضريح الشيخ أبا مدين شعيب، وذكر فضل قبره، فقال: " ... وقبر الشيخ أبي مدين، بالعباد معهود مشهور، وحوض للزائرين، رأيت من قبور الأولياء كثيرا من تونس إلى مغرب الشمس ومنتهى بلد آسفي، فما رأيت أنور من قبره ولا أشرق ولا أظهر من سرّه".[2]

ويواصل ابن قنفذ وصف موضع قبر أبي مدين، فيقول: " ... وقبره في بيت صغير، بجنبه نحو القبرين، أحدهما في غالب ظني للخديم بلال،وأما قبر الشيخ من هذه القبور فهو أنك إذا دخلت البيت فارجع عن يمينك مستقبلا، فالذي يقع على يسارك فهو قبره ... زرته مرارا، ورأيت له أسرارا، فمنها زياراتي له مع أمير المؤمنين المتوكل أبي العباس وذلك في سنة إحدى وستين وسبعمائة في وجهته من المغرب إلى قسنطينة ، وذلك في سنة ست وسبعين وسبعمائة"[3].

وبعد رجوع ابن قنفذ إلى قسنطينة، تولّى عدّة خطط، كالخطابة والإفتاء والقضاء، وعكف على نشر العلم بالتدريس والتأليف إلى أن وافاه الأجل سنة (810 هـ) عن عمر يناهز السبعين سنة.[4]

---

[1] أنس الفقير، ص 93-94.

[2] المصدر نفسه، ص 105.

[3] المصدر نفسه، ص 105.

[4] ذرة الحجال، ج1، ص 121.

المبحث الخامس: أحمد المقّري التلمساني (990 –1041 هـ) :

1- أوليته:

هو شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد بن يحي بن عبد الرحمن المقّري التّلمساني[1]، والمقري بفتح الميم وتشديد القاف، وآخرها راء مهملة. وقيل بفتح الميم وسكون القاف لغتان، أشهرهما الأولى نسبة إلى قرية من قرى تلمسان.[2]

أما تاريخ ولادته فلم يخبرنا به المقري اقتداء بجده أبو عبد الله المقري[3]، الذي قال حين سُئل عن سنّه:

احفـظ لسـانـك لا تبُـحْ بثلاثة سنّ ومـال مـا استطعت ومذهب[4]

وقد حاول بعض الدارسين تحديد سنة ولادة المقري، فذهب الأستاذ عبد الله عنان إلى أن ولادته كانت حوالي سنة (992 هـ)[5]. أما الأستاذ عثمان الكعّاك فرأى أن ولادته كانت حوالي سنة (990 هـ)[6]. أما محمد بن عبد الكريم فذهب إلى أن تاريخ ولادته يعود إلى سنة (986 هـ)[7]. والمهم في الأمر أن المقري ولد بتلمسان، ونشأ بها وتفرغ هناك لاغتراف العلوم على شيوخ وعلماء المنطقة، ولعل أبرز من تتلمذ عليهم المقري عمه الشيخ سعيد المقري[8]، وقد انحصر تعلمه في مسقط رأسه تلمسان.

---

[1] شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، محمد مخلوف، ص 300، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان ، 1949 هـ.

[2] خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، المحبي، ج1، ص 311، دار صادر، بيروت، داس.

[3] هو أبو عبد الله محمد المقري الكبير، كان قاضيا للجماعة بفاس، ت: 758 هـ (أنظر : التعريف بابن خلدون، ص 61-64).

[4] نفح الطيب، ج7، ص 132.

[5] تراجم إسلامية، شرقية وأندلسية، ص 245، دار المعارف ، القاهرة ، 1947 م.

[6] المقري ص7، مطبعة الشركة التونسية، تونس، 1347 هـ.

[7] المقري وكتابه نفح الطيب، ص 111، دار مكتبة الحياة، بيروت.

[8] أزهار الرياض، ج1، ص 10.

2- شيوخ المقري:

لم يذكر المقري سنّ شيوخه الذين قرأ عليهم في تلمسان، سوى عمه سعيد[1]، الذي لم يكن يرى عالم يضاهيه فيها،وقد تحدّث المقري عن شيوخه الذين أخذ عنهم بالمغرب الأقصى والمشرق العربي، خلال قيامه برحلاته، نذكر منهم:

- أبو الحسن علي بن عبد الرحمن السلاسي (ت: 1018 هـ)، كان قاضيا ومفتيا بمدينة فاس، ذكر المقري أنه حضر مجلسه في أول يوم دخل فيه فاس[2].
- أبو القاسم محمد الغسّاني (ت: 1032 هـ)، كان قاضيا بحضرة فاس، قال عنه المقري: " ... لقيته بها (أي فاس)، واستفدت منه، وقرأت عليه، نحو النصف من التخليص، وأخذت عنه"[3].
- أبو العباس أحمد بن أحمد الموسوفي التنبكتي، المعروف بأحمد بابا السوداني، (ت: 1032هـ)، لقيه المقري بمراكش، واستفاد منه، وكان يذهب معه لزيارة الصالحين، وقد أجازه على جميع تآليفه.[4]
- أبو العباس أحمد بن أبي القاسم التادلي الصومعي (ت: 1013 هـ)، لقيه المقري بحضرة مراكش، وأخذ عنه، وأذن له في لبس الخرقة.[5]
- أبو فارس عبد العزيز بن محمد القشتالي (ت: 1031 هـ)، لقيه المقري بمراكش، قد أجازه في جميع نظمه ونثره[6].

وقد ذكر الكتاني من شيوخ المقري بالمشرق ثلاثة ،هم:

- أبو الإرشاد نور الدين علي الجهوري (ت: 1066 هـ).
- تاج الدين عبد الرؤوف المناوي (ت: 1031 هـ).
- نجم الدين محمد بن محمد الغُزّي (ت: 1061 هـ)[7].

---

[1] هو أبو عثمان سعيد بن أحمد المقري، عالم تلمسان ومفتيها نحوا من ستين سنة، ولد سنة 930 هـ، وتوفي سنة 1010 هـ (أنظر شجرة النور الزكية، ص 295).

[2] روضة الآس، المقري، ت: عبد الوهاب بن منصور، ص 332 وما بعدها ، المطبعة الملكية الرباط ، 1960م.

[3] المصدر نفسه، ص 335- 336.

[4] المصدر نفسه، ص 303- 315.

[5] المصدر نفسه، ص 300-303.

[6] المصدر نفسه، ص 112 وص 163.

[7] فهرس الفهارس، ج1، ص 574 وما بعدها .

3- مؤلفات المقري :

لقد أَثْرى المقري المكتبة العربية بمؤلفات قيمة، هي أصدق دليل على نبوغه وعبقريته، وهنا ذكر بعض مؤلفاته[1]:

- "نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب ووزيرها لسان الدين بن الخطيب"، ذكر فيه المقري شيئا من رحلته الثانية إلى فاس، ورحلته إلى المشرق، كما ترجم فيه ترجمة وافية للوزير لسان الدين بن الخطيب وأورد فيه مراسلاته مع عدد من علماء المغرب والمشرق.
- "روضة الآس، العاطرة الأنفاس في ذكر ما لقيته بالحضرتين مراكش وفاس"، ترجم فيه المقري للعلماء الذين لقيهم في المغرب الأقصى، أثناء رحلته الأولى، ومن بينهم شيوخه الذين أجازوه، وقد حقق الأستاذ عبد الوهاب بن منصور القسم الثاني منه، مع العلم أن مقدمته ضاعت والقسم الأول وجزء من القسم الثاني.
- "أزهار الرِّياض في أخبار عيّاض"، ذكر فيه المقري أخبار القاضي عيّاض، وما يتصل بحياته. وهناك مؤلفات أخرى للمقري، ما تزال مخطوطة، نذكر منها:
- "إضاءة الدّجنة في عقائد أهل السّنة": وهي أرجوزة في العقائد تحتوي على 500 بيت.
- "النّفحات العنْبريّة": وهو رسالة نثرية في وصف ومدح نعال الرسول (ص).
- كتاب "البداية والنشأة"، كلّه أدب ونظم.
- كتاب "إعراب القرآن"، أعرب فيه المقري، وفسر سورا من القرآن الكريم. وقد ذُكِر للمقري ما يزيد على الخمسين مُؤَلَّفًا، في الأدب والتاريخ والتراجم والعقائد.

4- رحلة المقري:

للمقري رحلتان إلى المغرب الأقصى، ورحلة ثالثة إلى المشرق العربي. ولم يضع المقري كسابقيه من الرحالة مؤلفا مستقلا لرحلاته، بل سجّل بعض مراحلها ضمن مؤلفاته المختلفة. وسنحاول تتبع بعض نصوص رحلاته ، من بعض مؤلفاته العديدة.

---

[1] عن مؤلفات المقري، (أنظر: نفح الطيب، ج1، ص 11-14) و(المقري، محمد بن عبد الكريم ، ص 277 إلى 282) و(خلاصة الأثر، ج1، ص 303).

لعل الدافع الأساسي لرحلة المقري إلى المغرب الأقصى أمران:

- زيارة أضرحة الأولياء والصالحين.[1]
- أخذ العلم مباشرة من علماء المغرب الأقصى، وحضور مجالسهم، وحلقات دروسهم، بالإضافة إلى الحصول على إجازات من بعض العلماء، والاطلاع على الكتب المتوفرة هناك.[2]

ولم يذكر المقري تاريخ خروجه من تلمسان بقصد الرحلة إلى المغرب، كما أنه لم يصف طريق سفره إلى فاس، إن ما ذكره هو تاريخ حلوله بها، وذلك في الرابع من شهر صفر عام 1009هـ.[3]

وفي أول يوم دخل فيه المقري إلى فاس، حضر حلقة درس الشيخ أبي الحسن السلاسي في جامع القرويين، وقد تناقش مع هذا الشيخ في بعض المسائل الفقهية، ما جعل المقري يُعرف بين علماء فاس[4]. وأقام المقري بمدينة فاس مدة سبعة أشهر يفيد ويستفيد، ويزور مقامات الأولياء وأضرحة الصالحين. وقد التقى كذلك في فاس بالقائد أبو إسحاق إبراهيم الأيسي[5]، الذي اصطحبه معه إلى الحضرة المراكشية.

ثم غادر المقري فاسا، متجها صوب مراكش، مارا برباط الفتح، ولم يحدّد لنا تاريخ وصوله إلى مراكش، إنما يذكر زيارته للمسرّة بمراكش في رمضان عام (1009 هـ)[6].

ولما وصل المقري إلى مراكش نزل ضيفا على أحمد الآيسي، شقيق القائد إبراهيم، وهذا الأخير هو الذي كان سببا في وصول المقري إلى بلاط الأمير السعدي، أحمد المنصور المعروف بالذهبي[7]. وقد حدثنا المقري عن ذلك فقال: "سيدي إبراهيم بن محمد

---

[1] نفح الطيب، ج7، ص 127.

[2] روضة الآس، ص 315.

[3] المصدر نفسه، ص 224 و252.

[4] المصدر نفسه، ص 223-225.

[5] أنظر ترجمته في: ذرة الحجال ، ج1، ص 205 – 206.

[6] المصدر السابق ، ص 25.

[7] هو السلطان أبو العباس أحمد المنصور بن محمد المهدي بن أبي عبد الله بن عبد الرحمن ابن علي بن مخلوف بن زيدان، ولد بفاس سنة 956 هـ، وبويع بالخلافة على المغرب الأقصى سنة 986 هـ (ذرة الحجال ، ج1، ص 106 وما بعدها).

الآيسي ... ذهب بي إلى الحضرة المراكشية، وأدخلني إلى أمير المؤمنين، فيا لله من نعمة حصلت على يدَيْه، قد عظُمت وجلّت".[1]

وهكذا وصل المقري إلى بلاط الأمير، وأصبح من المُقرّبين إليه، يحضر معه مجالس العلماء والندماء وقد حضر المقري مناسبة الاحتفال بالمولد النبوي الشريف في قصر الأمير سنة (1010 هـ). وقد تحدّث المقري عن ما شاهده من أمور في هذا المولد، استغرب وقوعها، من ذلك إنشاد القصائد المولدية، ونصب الموائد لأصناف المأكولات، وإشعال الشموع ورفعها على شماعد من النحاس، والطواف بها في المدينة وتوزيع الثياب والأموال على الفقراء والمساكين[2].

وقد قام المقري في مراكش بزيارة أضرحة الأولياء والصالحين، ومجالسة العلماء ومناقشتهم ومناظرتهم، كما أُتيح له أن يلتقي بعلماء مختلف الأقطار الإسلامية، الذين كانوا يفدون على بلاط المنصور ليمدحوه بأشعارهم، وينالوا عطاياه، وقد تحدث المقري عن ذلك، فقال: "... ومن مآثره التي اختُصّ بها، ولم يُشَارَك فيها، إكرامه للفقهاء، لا سيما الوافدين على مقامه من البلاد الشاسعة، فتَعُمُّ جميعهم آلاؤه الواسعة، ولذلك نجدهم قد وفدوا عليه من أقاصي الأرض: كالشام والعراق ومصر والحجاز وغيرها"[3].

ولم يتمكن المقري خلال إقامته بمراكش من لقاء جميع علمائها، لأن مدة إقامته بها كانت قصيرة، بسبب كارثة الطاعون التي حلّت بمراكش، ثم عاد المقري إلى فاس، وقد زوّده المنصور برسالة إلى ولي عهده المأمون، يؤكد فيها عليه الوصاة في شأن حاملها.[4]

ولدى عودة المقري إلى فاس، واصل حضور حلقات الدرس، واجتماعات العلماء، وكان يشارك فيها بإنشاد الأشعار، وتحقيق المسائل الأدبية، حتى أُعْجِب علماء فاس بقوّة ذكائه، وكثرة حفظه.[5]

ولم يكن المقري في حضوره لمجالس العلم، يكتفي بالاستماع والأخذ فقط، بل كان يُبدي ملاحظاته، ويُعلّق على بعض المسائل، ومثال ذلك، تعليقه على كلام الأديب

---

[1] روضة الآس، ص 23.

[2] نفح الطيب ، ج7، ص 270.

[3] روضة الآس، ص 14-15.

[4] المصدر نفه، ص 73-74.

[5] المصدر نفسه ص 24-26 و266.

ابا يعقوب المراكشي، عندما اعترض هذا الأخير على جزم كلمة – يفترقا- من قول السلطان المنصور:

أشكـــو نُهاي وشوقـي كيف يفترقـا فـــي أمـره وكلا ذا زاد تعبـــي[1]

فقال المقري: " كيف يفترقا، فيه حذف النون من غير جازم ولا ناصب. وذلك جائز عند بعض العرب، كما نص على ذلك ابن مالك في شرح الكافية وغيره"[2].

ومثل هذه الملاحظات والتعليقات، نجدها كثيرا عند المقري، وهي تدل على عمق تفكيره، ومكانته العلمية، وشجاعته الأدبية.

وفي يوم 17 ذي القعدة من عام 1010 هـ[3]، خرج المقري من فاس عائدا إلى تلمسان، بعدما غاب عنها ما يقارب الواحد والعشرين شهرا، أمضاها في طلب العلم، ولقاء الشيوخ، وتوطيد العلاقات.

وبعد عودة المقري إلى تلمسان، شرع في تأليف كتابه المسمى (روضة الآس)، الذي تناول فيه تراجم من اجتمع بهم من أعلام الحضرتين مراكش وفاس. وعلى رأسهم السلطان (أبو العباس أحمد المنصور). كما تناول فيه بعض أخبار رحلته الأولى إلى المغرب الأقصى.

ولم يكد المقري يستقر بتلمسان، حتى بدأ يستعد للعودة إلى المغرب الأقصى، وقد عبّر عن ذلك، قائلا: " ... نسأل الله سبحانه أن ييّسر علينا ما نحن بصدده، من الأخذ في الانتقال إلى حضرته (المنصور) العلية عاجلا"[4].

ونجده في موضع آخر، يبتهل إلى الله أن يعجل له بالعودة إلى المغرب الأقصى، قائلا: "نسأل الله سبحانه أن يزعجنا إلى حضرته المقدسة الطاهرة، من أدناس الجور والحيف"[5]. وكأنّ المقري بقوله هذا، يشكو ظلما أصابه، أو إعراضا من أهل بلده عنه

---

[1] هذا البيت من قصيدة للسلطان المنصور، يقول فيها:

فحدقة العين تقصينـي وتؤسينـي * واللحظ يطمعني فيه ويسخر بي

إن أطعت ذاك فمن لي فاتني أربي * أو أطعت هذا فمن لي فاتني حسبي (أنظر : ذرة الحجال ، ج1، ص 116).

[2] يقصد المقري، أن حذف النون في قوله – كيف يتفرقا- لضرورة الشعر ، أو على لغة من يحذفها تخفيفا.

[3] روضة الآس، ص 322.

[4] المصدر نفسه، ص 70.

[5] المصدر نفسه، ص 111.

فلا نفقة فيها إلا من دينار تقرضه، وعلى يديْ مُخسرٍ للميزان تَعرضُه، لا تكاد تظفر من خواص أهلها بالورع العفيف،ولا تقع من أهل موازينها ومكاييلها إلا من ثبت له الويل من سـورة التطفيف، لا يبالون في ذلك بعيب، كأنهم من بقايا مدين قوم شعيب، فالغريب فيهم معـدوم الإرفـاق، متضاعف الإنفاق، لا يجد من أهلها إلا من يعامله بنفاق، أو يهش إليه هشاشـة انتفاع واسترفاق، كأنهم من التزام هذه النحلة القبيحة على شرط اصطلاح بينهم واتفاق"[1].

فأسـلوب هذين النصين من رحلة ابن جبير، وإن كانا لا يخلوان من أنواع البديع، فـإنك لا ترى فيهما ميلا إلى تكلف ذلك ولا إلى الإكثار منه، ففي هذين النصين شيء من الـبديع لكنه بديع عفويّ لم يتكلّف الكاتب اصطناعه. كما تظهر في النّصين بعض سمات الأسـلوب المـزدوج، كالتوازن الذي هو تعادل الفقرات على نحو السجع، ويختلف عن السجع بعدم التقيّد بالقوافي.[2] ومثاله في النص الأول، قول ابن جبير: "... فجاء النهار بما هـو أشد هولا، وأعظم كربا، وزاد البحر اهتياجا، وأريدت الآفاق سوادا ..."، فإذا كانت مقاطع الكلام معتدلة، على هذا النّحو، وقعت من النفس موقع الاستحسان.

ج – الأسلوب المرسل:

وهـو الأسـلوب الـذي يُرسل على السجيّة دون تَعمّل فنّي خاص، مع الاحتفاظ بجماليـته ورونقـه، وهـو يمـتاز بخلوه من آثار الصنعة البديعية، ويقوم على السهولة والوضـوح، مع توفير الجزالة والرصانة، فهو أسلوب واضح شفاف، ليس فيه تعقيد ولا إغراب.

وأمثـلة هـذا الأسلوب، نجده كثيرا في كتب الرحلات، من ذلك – مثلا– عند ابن جـبير، الـذي يصـف مـنارا بمدينة الاسكندرية، قائلا: "... ومن أعظم ما شهدناه من عجائـبها، المنار الذي قد وضعه الله عز وجل على يدي من سُخّر لذلك، آية للمتوسّمين، لولاه ما اهتدوا في البحر إلى بر الاسكندرية، يظهر على أزيد من سبعين ميلا. ومبناه في غايـة العتاقة والوثاقة طولا وعرضا، يزاحم الجو سموا وارتفاعا، يقصُر عنه الوصف، ويحسـر عـنه الطـرفُ، الخبر عنه يضيق، والمُشاهدة له تتّسع، ... وأما داخلها فمرأى

---

[1] رحلة ابن جبير، ص 158.

[2] المثل السائر، ضياء الدين بن الأثير، ص 169، بولاق، 1282 هـ .

هائل، اتساع معارج ومداخل وكثرة مساكن، حتى إن المتصرف فيها، والوالج في مسالكها ربما ضلّ، وبالجملة لا يحصلها القول، والله لا يُخليه من دعوة الإسلام .... وما شاهدناه من شأن مبناه عجبا، لا يستوفيه وصف واصف"[1].

ومن أمثلة هذا الأسلوب نجده عند الرحالة أبي راس، حين كان بصدد وصف مدينة تلمسان، فقال: "... وأما علماؤها فأولاد ابن زاغو من مغراوة، والعقابنة من قرية بالأندلس، والمرازقة من عجيسة، والمقارة من مقّرة، وأولاد الإمام، والشرفاء الأدارسة: أبو عبد الله وأولاده، والشيخ أحمد بالحاج المانوي وبنوه، وكنت سمعت أن بها من أضرحة العلماء آلاف ..."[2].

فأنت ترى كيف اعتمد هؤلاء الرحالة على الإيجاز في وصفهم، فالمعاني تُؤدّى بأقل الألفاظ دون أن تقصر عنها، ودون أن تطول طولا يجحف بحقها. هذا لا يعني أن هؤلاء الرحالة لم يكونوا يهتمون بالجمال الشكلي، لكنهم كانوا يَسْعَونَ إلى الدقة في الوصف والتصوير، فلم يتوسعوا في رصف الألفاظ وبسطها، حتى لا تخونهم في أداء المعاني.

وبالمقابل، نجد أن بعض الرحلات، يأخذ أسلوبها طابع الغثاثة والركاكة، وقد نجده بكثرة عند الرحالة ابن حمادوش الجزائري، ومن أمثلته، قوله وهو يتحدث عن خروجه من فاس: "... وخرجت من فاس، اكتريت بهيمتين من الأبغال إلى تطوان، فظللنا سائرين إلى آخر النهار، نزلنا في دوار عرب بين واديين ... ورفعنا من هناك، سرنا النهار كله إلى العشية، بل قبل الظهر أو قريب منه، نزلنا تحت بني ورياكل، وهي دشور، بتنا على عين مائها عند الصفصاف، ورفعنا منها صبيحة الاثنين، وظللنا سائرين حتى مررنا في غيطة عظيمة مقدار نصف يوم ..."[3].

ويستمرّ ابن حمادوش في وصف طريق رحلته على هذه الوتيرة، فأسلوبه جاء مهلهلا ينقصه التناسق والانسجام، مع إهماله الواضح لحروف العطف.

---

[1] رحلة ابن جبير، ص 45-46.

[2] فتح الإله ومنته، ص 108.

[3] رحلة ابن حمادوش، ص 98-99

3- الخصائص اللغوية :

لقد جاءت لغة الرحلات – عموما- بسيطة، سهلة، وواضحة. فهي لغة فصيحة ومأنوسة، تتسم بالدقة، حيث أن الرحالة يوظف لغته بدلالاتها المُعجمية الدقيقة، فكل لفظ في الرحلة يُستعمل لأداء مدلوله اللغوي الذي وُضع فيه. فغاية الرحالة في كتابته أن يوفق بين اللفظ الدال، والمعنى المدلول.

على أن بعض الرحالة يلجأ إلى استعمال الألفاظ الغريبة، ويكثر في استعمالها، لا لشيء سوى أنه يريد إظهار سعة اطلاعه اللغوي، وتجلية مقدرته الإبداعية، وحسن تصرفه في اللغة. وأمثلة ذلك نجده كثيرا عند الرحالة العبدري – مثلا- حين يصف رحلته مع رفقة في الصحراء، قائلا : " ... استدعونا للمرافقة فأجبناهم، وساروا بنا في مجاهل تُضلّ الدليل، ويذهل فيها الخليل، وفيهم رجل أدلّ من سليك المقانب، وأمضى من المُرهف القاصب، يُطبق مفاصل القفار، وينصلت من المجاهل انصلات المَجليّ من النّقع المُثار، كالسّهم مُدّ إلى عرض الفلاة، والجارح مُنقضّا على الحومات، لا يستدلّ بنجم ينظر فيه، ولا يعرف نعشا* ولا بنيه، ولا يتقي أن يسهو مع سهى، فيذكره سهيل* أو السها* ... وهو يشقّ أديم البهماء، كما شقّ البرق حُندُس الظلماء، تحسده النجوم فتلاحظه بطرف كليل، وتُغاربه الريح فتتنفس بنفس عليل"[1].

كما نجد مثل هذه اللغة المعقدة عند الرحالة النّاصري – مثلا- حين يصف مدينة تلمسان، قائلا: "... وأما الآن فهي كأمس الدّابر، والميت القابر، قد استولى على أكثرها الخراب، وناح على خاوي عروشها الغُراب، فأقول: تلمسان، وما أدراك بتلمسان فبقعة الظّل الأبْرد، ونسيجة المنوال المُفرد، وكناس الغَيدِ الغَرِدِ، وكُرسيّ الإمارة، وبحر العمارة، ومَهوى هوى الغَيث الهتُون، وخَرُوبُ التّين والزيتون، حيث خَندقُ الجنّة تدنو لأهل النار مجانية، وتشرق بشاطئ الأنهار إشراق الأزهار مبانية ... فأصبحت خامدة

* أسماء نجوم وكواكب عرفها العرب في الجاهلية، أنظر: دور المسلمين في تقدم الجغرافيا الوصفية، اسماعيل العربي، ص 39، ديوان المطبوعات الجامعة، الجزائر ، 1994م.

[1] رحلة العبدري، ص 20.

الحـــسّ، ضيّقة النفس، كأن لم تكن بالأمس، وما أحسن ما قيل: "يا تلمسان! اصبري على كمد الزمان وكدّه، وقلب مجنّه، وذهاب رفده، فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده"[1].

والحقيقة أن العبدري والناصري وبعض الرحالة الآخرين، نجدهم يولون تراكيبهم الـــلغوية عناية كبيرة، من حيث اختيار الألفاظ، وترتيب المعاني، وتنميق الأسلوب ، فهم يحرصـــون على الاتيان بالألفاظ الغريبة، ويحشدونها في تراكيبهم حشدا، فمثلا، نجد في نـــص العـــبدري الذي لا يتجاوز العشرة أسطر، أنه استعمل أكثر من خمس عشرة لفظة غريـــبة ، وكأنه ليس وجهة إلا أن يُعبّر تعبيرا لغويا غريبا. فتركيب اللغة في الرحلات – عموما– متين لا ضعف فيه، تؤدّى فيه المعاني المقصودة في الأحوال المناسبة، إما حقيقة أو مجازا، من غير تأثر بعجمة أو لحن عامي.

عـــلى أن لغة بعض الرحلات يعتريها ضعف واضح، حيث أكثر فيها أصحابها من اســـتعمال الألفـــاظ العاميـــة والألفـــاظ الدخيلة، وأمثلة ذلك نجده كثيرا عند الرحالة ابن حمـــادوش، من ذلك قوله وهو يتحدث عن وفاة أحد رفقائه في البحر: "... وصلّيت عليه إمامـــا مع الجماعة كلهم بعد صلاة العشاء، ونزل معه مُغسّله وآخرون من النّصارى في الفلوكة، إلى أن بعدوا عنّا، وربطوا معه شكارة من رمل، فثقلوه بها وألقوه في البحر".[2]

فـــابن حمادوش في هذا النص، وغيره من نصوص رحلته، يستعمل ألفاظا عامية، كـــانت وما تزال مستعملة في منطقة المغرب العربي كلفظة الفلوكة (المركب الصغير)، ولفظة الشكارة (الكيس).

كمـــا اســـتعمل بعـــض الرحالة ألفاظا دخيلة على اللغة العربية، مثل: لفظة: الكتّة (تعـــني السرير، وهي لفظة هندية)، ولفظة خَوَنْد عالم (تعني الملك، وهي لفظة فارسية)، ولفظـــة البَاشَادُور (تعني السفير وهي لفظة تركية) وغيرها من الألفاظ الكثيرة المستعملة في كتب الرحلات.

وهناك ظاهرة بارزة في الرحلات، يمكن أن تتخذ شكل خاصية لغوية، لتجلّيها فيها بشـــكل واضـــح، وهـــي كـــثرة ورود أســـماء الأعلام، وأسماء الأماكن، وكثرة النعوت والصفات، وأسماء الهيئات والأحوال.

---

[1] فتح الإله ومنته ، ص 108.

[2] رحلة ابن حمادوش، ص 31.

كمـــا تكثر في الرّحلات، الألفاظ الدالة على التنقل والحركة والارتحال، منها مثلا: (رحلنا، نزلنا، سرينا، اجتزن، ركبن، وصلنا، قدمنا، مررنا، دخلنا، عبرنا، سلكنا، سافرنا، صبحنا، خرجنا، انتقلنا، زرنا، التقينا ... إلخ). وغيرها من الألفاظ التي تدل على الانتقال والترحال.

كمـــا تكثر في الرحلات، حروف العطف والربط والاستئناف، كالواو، والفاء، وثمّ، التي تساعد على ترابط الجمل والكلمات، واستئناف الكلام وتتابعه، كما تعطي الكلام صفة السرد والتقرير.

وبما أن الرحالة ينتقل – في أغلب الأحوال– بصحبة ركب أو قافلة أو رفقة ، فإن أفعالـــه تـــأتي معظمها بصيغة الجمع. ونادرا ما يتحدث الرحالة بصيغة المفرد، إلا حين يـــروي حادثـــة جـــرت له، مثلما فعل الرحالة ابن مرزوق (ت: 781 هـــ)، حين قصّ الحادثـــة التي جرت له مع رجل غريب في السفينة، فقال: "... فرأيت إلى جانبي رجلا عليه زيّ الطلبة، فسألني عن الحال سؤال متعرف النسب والحلية والوجه، فدار بيني وبينه بحث طويل ..."[1].

أمـــا زمن الأفعال في الرحلات، فيأتي معظمه في الزمن الماضي، لأن الرحالة في تسجيله لرحلته، يكون بصدد الحديث عن أمور جرت له في الماضي، ويتنوع الماضي في الرحلة بين الماضي المطلق – وهو الغالب– والماضي القريب المسبوق بـــ قد، والماضي الدال على المستقبل – كالدعاء–.

[1] المسند الصحيح، ص 483.

المبحث الثاني : الخصائص الموضوعية

1 – مضامين الرحلة :

رأينا – سابقا– أن الرحلة ذات طابع تسجيلي، تعتمد السرد والشرح في قالب إخباري، لا يخلو من وقفات تحليلية. فكتاب الرحلة لا يخرج عن كونه تقريرا عن رحلة معينة. فمهما كان نوع هذه الرحلة، فهي في حاجة إلى تقرير يُسجّل تفاصيلها.

وبما أنّ موضوع الرّحلة هو السّرد، فهو يعتمد على عنصرين هامّين: عنصر أساسي وهو الوصف، وعنصر ثانوي وهو الحوار.

أما الوصف في الرحلة، فله ثلاثة أبعاد:

أ – البعد النقلي:

يعرف أيضا بالوصف التقريري، وهو الذي يقوم فيه الرحالة بمشاهدة الظواهر ومراقبتها، ويُقرّر ما يُبصره من أشكال وأوصاف تقريرا علميا، إذ يقوم الرحالة بوصف الواقع، ونقل ما يُشاهده، وتسجيله بأمانة وصدق، دون تدخّل عاطفة أو خيال، وأمثلة هذا النوع من الوصف كثير في الرحلة، نقتصر منه على المثال الآتي:

يصف الرحالة عبد الله التيجاني جزيرة جربة، قائلا: "... وجزيرة جربة من أعظم الجزائر خطرا، وأشهرها في سالف الزمان عمارة وذكرا، وهي أرض كريمة المزارع، عذبة المشارع. شجرها النخيل والزيتون والعنب والتين وبها أصناف كثيرة من سائر الفواكه، إلا أن هذه أكثر ثمرها، وعليها مدار غلاّتها، وغيرها من كرائم الأرضين لا يقاربها على الجملة في ثمارها أو يساويها. وتفّاحها لا يوجد في جميع بقاع الأرض له نظير، لما يوجد بها من صفاء وجفاف، وطيب مذاق وعطارة استنشاق، ورائحته توجد من المسافة المديدة والأميال العديدة. وكان من شجره بهذه الجزيرة قبل ذلك كثير، ثم قلّ الآن بسبب أن النصارى يُتحفون به ملوكهم وكبارهم دون تعويض لأربابه عنه، فرأى أهل الجزيرة أن غيره من الشجر أعود بالفائدة عليهم فقطعوا أكثره ... وأكثر مساكن أهلها خصائص من النخيل يجعل كل واحد منهم في أرضه واحدا أو اثنين أو أكثر من ذلك. ثم يسكنه بعياله وليس بها بناء قائم إلا دور قليلة" [1].

---

[1] رحلة التجاني ، ص 121.

فالرحالة في هذا المقام، يُحاول تجسيد مشاهداته الحسية، ووصفها وصفا علميّا يقوم على صحّة التّشابيه ودّقتها مُحاولا تقليد مشاهداته ومُجاراتها. فهو هنا يصوّر لنا الظواهر تصـــويرا كـــاملا، يتناول جزئياتها الدقيقة، ويصف وصفا مباشرا دون الاحتماء بزخرف لفظي أو امتطاء خيال. ويتسم البعد النقلي بسمات عديدة، منها:

* **الواقعية**: وهو أن يصف الرحالة مشاهداته وصفا واقعيا وموضوعيا، دون تأثر بعاطفة شخصية ودينية أو نزعة مذهبية وسياسية.

ويجـــدر الذكـــر أن بعـــض الرحالة كانوا مغرقين في العاطفة الفورية، مما أدّى ببعضـــهم إلى حشد تقاريرهم الوصفية بتعليقاتهم الشخصية، واستجاباتهم العاطفية الذاتية، فجاءت أوصافهم بعيدة عن الموضوعية.

ولعل أبرز مثال على ما قلناه، الرحالة العبدري الذي زار الجزائر ومدنها في بداية القرن السابع الهجري، ووصف الحياة العلمية فيها بالضعف والانحطاط. من ذلك – مثلا – قوله في وصف تلمسان: "... إن العلم قد درس رسمه في أكثر البلاد، وغاضت أنهاره ... ومـــا رأيت بتلمسان من ينتمي إلى العلم، ولا من يتعلق منه بسبب سوى صاحبنا أبي عبد الله بن خميس ..."[1].

وقولـــه – أيضا- في وصف مدينة الجزائر "... أقفرت من المعنى المطلوب، ولم يـــبق بهـــا مـــن هو من أهل العلم محسوب، ولا شخص إلى فن من الفنون منسوب، وقد دخلـــتها ســـائلا عـــن عـــالم يكشف كربة، أو أديب يُؤنِس غربة، فكأني أسأل عن الأبلق العقوق، أو أحاول تحصيل بيض الأنُوق".[2]

وهكـــذا لا تختـــلف انطباعات العبدري عمّا سجّله عن المدن الجزائرية الأخرى – كبجاية وقسنطينة – من وصف أهلها بالجهل وإهمال العلم. لكنه من غير الممكن أن تكون الحالة العلمية في الجزائر ومدنها على الحالة التي وصفها بها العبدري، لأن كتب التاريخ والتراجم تشهد أن الحياة الثقافية بمدن الجزائر، كانت مزدهرة في القرن السادس الهجري، فقد كانت تزدان بطائفة كبيرة من العلماء الأجلاء من أمثال: أبو الطاهر عمارة بن يحي،

---

[1] رحلة العبدري ، ص 21.

[2] المصدر نفسه، ص 23.

والشـــاعر ابـــن الفكـــون القسنطيني، والشيخ محمد بن إبراهيم الآبلي، والشيخ محمد بن سليمان السطي، والشيخ ناصر الدين المشدالي، وغيرهم من العلماء النحارير.

وفي القرن السابع الهجري نجد أن الحركة الثقافية في الجزائر تقدمت تقدما كبيرا. ونبغ فيها أعلام كثيرون في بجاية وتلمسان ومليانة.

وهـــنا أورد تعليق الأستاذ رابح بونار على وصف العبدري السابق حيث قال: "لا شـــك أنّ العبدري الذي مرّ بالقطر الجزائري سنة 668 هـــ، مرورا خاطفا، وحكم على الحركة العلمية بحواضرها، بالاستناد إلى أفراد قلائل قد اتصّل بهم في وقت محدود، كان متعسفا في حكمه، وبعيدا عن الحقيقة والواقع"[1]. ويبدو أن العبدري تأثر في وصفه بنزعة ما، فجاء وصفا مغايرا للواقع.

* <u>التطور وتتبع الحركات</u>: وهو التتبع الزمني للحوادث والحركات، فالرحالة في وصفه لا يهتم بالحوادث الثابتة فحسب، بل يلتقط صور الأشياء عبر حدوثها وتحركها. من ذلك – مثلا– وصف الرحالة ابن جبير لمجلس من مجالس الوعظ، في أحد مساجد بغداد، قائلا : "... ثـــم شاهدنا مجلس الشيخ الفقيه جمال الدين علي الجوزي، فشاهدنا مجلس رجل ليس مـــن عمـــرو ولا زيـــد، آية الزمان، وقُرّة عين الإيمان، إمام الجماعة، وفارس حلبة هذه الصـــناعة، والمشهود له بالسبق الكريم في البلاغة والبراعة. (فأخذ)[2] هذا الإمام الغريب الشـــأن فـــي إيراد خطبته عجلا مبتدرا، وأفرغ في أصداف الأسماع من ألفاظه دررا – أفســـحر هذا أم أنتم لا تبصرون، إن هذا لهو الفضل المبين. فَحَدِّثْ ولا حرج عن البحر، هيهـــات ليـــس الخَبر عنه كالخُبْر، ثم إنّه أدّى بعد أن فرغ من خطبته برقائق من الوعظ، وآيات بينات من الذكر، طارت لها القلوب اشتياقا، وذابت بها الأنفس احتراقا، إلى أن علا الضجيج، وتردد بشهقاته النشيج، وأعلن التائبون بالصياح، وتساقطوا عليه تساقط الفراش عـــلى المصـــباح، وفـــي أثـــناء مجلسه ينشد بأشعار من النسيب، مُبرِحة التشويق، بديعة الـــترقيق، ... ولم يزل يردّدها والانفعال قد أثر فيه، والمدامع تكاد تمنع خروج الكلام من

[1] عنوان الدراية، الغبريني ص 22-23 مقدمة المحقق، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981.

[2] ناقصة في النص، اقتضاها السياق.

فيــه، ونــزل من المنبر دهشا عجلا، وقد أطار القلوب وجلا، وترك الناس على أحرّ من الجمر، يُشيّعونه بالمدامع الحُمر".[1]

* **كــثرة الــنعوت**: بمــا أن الــرحالة ينقل ما يقع عليه بصره في حدوده الشكلية والمكانيــة والزمانية، فهو يسعى إلى تقليد الواقع تقليدا نسخيّا، وتصوير ما يراه تصويرا يجعــل القــارئ يرى من خلال حدقته. لهذا يُعنى الرّحالة – في وصفه بالتفاصيل عناية بالغــة، حتى يتمكن من نقل مشاهداته نقلا سليما، فهو يُنشئ واقعا ثانيا بالصور والألفاظ، وبهــذا تكــثر فــي كتب الرحلات، الأوصاف والنعوت، وأسماء الأمكنة وأسماء الهيئات والأحــوال، – ومن ذلك مثلا– وصف الرحالة ابن بطوطة لعادة خطيب مكة يوم الجمعة، قــائلا: "... وعادتهم يوم الجمعة أن يُلصق المنبر المبارك إلى صفح الكعبة الشريفة فيما بيــن الحجــر الأسود والركن العراقي، ويكون الخطيب مستقبلا المقام الكريم، فإذا خرج الخطيــب أقبل لابسا ثوبا سواد، مُعتمّا بعمامة سوداء، وعليه طيلسان أسود، وعليه الوقار والســكينة، وهــو يتهادى بين رايتين سوداوين يمسكهما رجلان من المؤذنين، ولا يزال كذلــك إلى أن يَقْــرُب مــن المنبر، فيُقبّل الحجر الأسود، ويدعو عنده ثم يقصد المنبر، والمــؤذن بين يديه لابسا السواد، وعلى عاتقه السيف ممسكا له بيده، فإذا صعد أول درج مــن درج المنبر قلدّه المؤذن السيف، فيضرب بنصل السيف ضربة في الدرج يُسْمِع بها الحاضرين. ثم يضرب في الدرج الثاني ضربة، ثم في الثالث أخرى، فإذا استوى في عُليا الدرجــات، ضــرب ضربة رابعة، ووقف داعيا بدعاء خفيّ مُستقبل الكعبة، ثم يُقبل على الناس فيسلّم على يمينه وشماله، ويرد عليه الناس، ثم يقعد ويؤذن المؤذنون في أعلى قبة زمــزم في حين واحد، فإذا فرغ الأذان خطب الخطيب خطبة يُكثر فيها من الصلاة على النــبي صلى الله عليه وسلم ويقول في أثنائها: "اللّهم صلّ على محمد وعلى آل محمّد ما طاف بهذا البيت طائف، ويشير بأصبعه إلى البيت الكريم. اللّهم صلّ على محمّد وعلى آل محمــد مــا وُقف بعرفة، ويترضّى من الخلفاء الأربعة، وعن سائر الصحابة وعن النبي صلى الله عليه وسلم، وسِبْطيْه وأمّهما، وخديجة جدّتهما على جميعهم السّلام".[2]

---

[1] رحلة ابن جبير، ص 159-161.

[2] رحلة ابن بطوطة ، ص 160-161.

فالرحالة ابن بطوطة، في وصفه هذا نجده يلاحق تفاصيل ما يصفه بكل دقة، حتى يُضفي على وصفه كثيرا من الصدق والواقعية. وحتى يجعلنا نشعر عندما نقرأ رحلته، كأننا نشاهد ما كان يشاهده هو، ونراه متجسدا كما وُجِد فعلا، ولو تخلّى الرحالة عن هذه التفاصيل، لبدا وصفه وهميّا.

* **الانتقال من العام إلى الخاص:** وهو أن ينتقل الرحالة – في وصفه– من المقدمات العامة، منحدرا أو متشعبا إلى التفاصيل، فالرحالة إذا وصف مسجدا – مثلا– فإنه يهتم في البداية بوصف شكله الخارجي، وعدد أبوابه، وشكل صومعته وحجمها. ثم ينتقل إلى وصف شكله الداخلي، من عدد سواريه وأشكالها وزخارفها، ووصف محرابه وشكله، ووصف الزخارف الموجودة فيه، ومثال ذلك، وصف ابن بطوطة للجامع الأموي بدمشق، قائلا: "هو أعظم مساجد الدنيا احتفالا، وأتقنها صناعة، وأبدعها حسنا وبهجة وكمالا..." ثم ينتقل ابن بطوطة من الوصف العام إلى التفاصيل، فيقول "... وزُيّن هذا المسجد بفصوص الذهب المعروفة بالفسيفساء، تخالطها أنواع الأصبغة الغريبة الحسن، وذرع المسجد في الطول مائتا خطوة، وعرضه مائة وخمس وثلاثون خطوة ..". ثمّ يُفصّل ابن بطوطة في وصفه أكثر، فيقول: "... وبلاطاته ثلاثة مستطيلة من شرق إلى غرب ... وسعة الصحن مائة ذراع ... ولهذا المسجد ثلاث صوامع ... وفي هذا المسجد أربعة أبواب ..."[1] وهكذا يستمر ابن بطوطة في التفصيل، فيذكر أسماء الأبواب وأماكن وجودها، وصفاتها وزخارفها، حتى يستوفي كل صغيرة وكبيرة.

فيأتي وصف الرحالة شديد الأحكام والترابط، ينتقل من جزء إلى آخر، ويتدرج في وصف الشيء الذي يشاهده حتى يستوفيه ويأتي على نهايته، فهو في وصفه يرسم لنا خطوطا عامة، ثمّ ينصرف إلى الجزئيات والتفاصيل التي تستوفي جميع وجوه الشيء.

ب – البعد الوجداني:

هو أن يصف الرحالة مشاهد كان قد رآها من قبل، أو أشياء كانت موجودة ثم زالت واندثر رسمها. فيحاول استعادة صور هذه الأشياء وتسجيلها، فهو يعتمد على خياله لإعادة إحياء الصورة الباقية في النفس بعد غياب المحسوس عنها، هذه الصورة تكون تمثيلا ماديا لشيء خارجيّ مُدْرك بحاسة البصر، فيأتي وصف الرحالة يتراوح بين التقرير

[1] رحلة ابن بطوطة، ص 88.

والخيـــال. ومـــن أمثلـــته قـــول الرحالة الغزّال في معرض حديثه عن مسجد غرناطة: "... ومـــنذ عبرنا هذا المسجد، لم تفتر لنا عبرة مما شاهدناه من عظمته، وتذكرنا ما كان عـــليه على عهد الإسلام، وما قُرِئ فيه من العلوم، وتُليت فيه من الآيات، وأُقيمت فيه من الصـــلوات، وما عُبد به الله، وقد تُخُيِّلَ في الفكر أن حيطان المسجد وسواريه تسلّم علينا، وتهـــشّ إليـــنا مـــن شدّة ما وجدناه من الأسف، حتى صرنا نخاطب الجماد، ونعانق كل سارية، ونقبل سور المسجد وجدرانه".[1]

ومن أمثلته – أيضا– قول ابن بطوطة وهو يصف البيت الحرام: "... ودخلنا البيت الحرام الشريف الذي من دخله كان آمنا، وشاهدنا الكعبة الشريفة زادها الله تعظيما، وهي كالعـــروس تُجـــلى على منصة الجلال، وترفل في برود الجمال، محفوفة بوفود الرحمن، موصلة إلى جنة الرضوان ... ومن عجائب صنع الله تعالى أنه طبع القلوب على النزوع إلى هذه المشاهد المنيفة، وجعل حبها متمكنا في القلوب ، فلا يحلّها أحد إلا أخذت بمجامع قلـــبه، ولا يفارقهـــا إلا أسفا لفراقها، متولها لبعاده عنها، شديد الحنين إليها، ناويا لتكرار الوفادة عليها، فأرضها المباركة نصب الأعين، ومحبتها حشو القلوب، والشوق يحضرها وهـــي نائيـــة، ويمثـــلها هي غائبة، ويهوّن على قاصدها ما يلقاه من المشاق، ويعانيه من العناء، ومن رزقه الله تعالى الحلول بتلك الأرجاء، والمثول بذلك الفناء، فقد أنعم الله عليه النعمة الكبرى، وخوّله خير الدّارين الأولى والأخرى ..."[2].

فالوصـــف الوجداني، هو تصوير على حدقة الخيال، وشاشة الضمير، وهو وصف فني يجمع بين القدرة الفكرية والعقلية على الملاحظة، وبين النبض العاطفي الذي يشعر به الرحالة اتجاه الأحداث والمواقف.

ج– البعد القصصي:

هـــو البعد الذي يجعل وصف الحوادث وسيلة من وسائل التجسيد، فيكون قريبا من أســـلوب القصـــة، إن لـــم يكـــن قصة أحيانا. فابن بطوطة – مثلا– في معرض وصفه لأهـــرامات مصـــر، ينتقل من عملية الوصف إلى سرد قصة بناء الأهرامات، ومثال ذلك قولـــه: "... والأهرام بناء بالحجر الصلد المنحوت، مُتناهي السّمو، مُتّسع الأسفل، ضيّق

---

[1] رحلة الغزال، ص 95.

[2] رحلة ابن بطوطة ، ص 130–131.

الأعـــلى، كالشكل المخروط، لا أبواب لها، ولا تُعلم كيفية بنائها. ومما يذكر في شأنها أن ملوك من ملوك مصر قبل الطوفان ..."[1].

فالـــرحالة هنا، ينتقل من الأداء التقريري إلى حالة التعبير القصصي، فيورد قصة بـــناء الأهـــرام. فيصبح وصف الرحلة ذو نزعة قصصية، ربما يعتمد فيه الرحالة على مقدمة وعقدة وحلّ.

وأمّا الحوار فهو عنصر يتوسّل به الرحالة لإضفاء طابع الواقعية، وللاستزادة في التشـــويق، فوظيفة الحوار ليست رواية الأحداث وحسب، إنمّا مهمّته جَعلُ القارئ يعيش الحوادث أمامه مباشرة دون وسيط.[2]

فقـــد يقـــوم بعـــض الرحالة بلقاء العلماء والشيوخ، وحضور مجالسهم، ومناقشتهم ومحـــاورتهم، فينقل لنا ما جرى في هذه المجالس عن طريق عملية الحوار، ومثل ذلك ما أورده الـــرحالة الناصري من حوار جرى بينه وبين بعض علماء مصر، فقال: "اجتمعت مـــع عـــلماء مصر بالجامع الأعظم، وتناظرنا وتذاكرنا في مسائل جمّة، ثم قالوا لي: مَنْ لُقِبّ بالحافظ لابد له أن يختص بشيء دون غيره، وأنت ما تحفظ ؟

- فقلت: أحفظ كذا وكذا متنا من سائر العلوم.
- قالوا: لقينا كثيرا من الناس يحفظ مثلك وأكثر.
- قلت: أحفظ أحكام القرآن، مثلها كلها وأفهمها.
- قالوا : عندنا كثيرا من يحفظها حفظا وفهما.
- قلت: أحفظ ألفية ابن مالك ومنظوم البيان، ما من باب فيهما إلا أعرف كم فيه من بيت بديهة.
- قالوا: هذا ما لم نر من يحصيه، ولا سمعنا به، ونحن بمدينة العلم الحاوية كل غريب.[3]

ومثاله – أيضا– ما نجده عند الرحالة ابن خلدون، حين أورد حوارا دار بينه وبين قائد المغول تيمور لنك، فقال : "... فلما دخلت عليه (أي تيمور لنك) أشار بالجلوس، فجلست

---

[1] رحلة ابن بطوطة، ص 42.

[2] فن الأدب، توفيق الحكيم، ص 148- 152، المطبعة النموذجية، القاهرة .

[3] فتح الإله ومنته، ص 116-117.

حيـــث انتهيت ثم استدعى من بطانته الفقيه عبد الجبار بن النعمان، فأقعده يترجم ما بيننا، وسألني: من أين جئت من المغرب ؟.

- قلت : من تونس.
- قال: وأين أولادك؟.
- قلت : بالمغرب الجواني.
- قال: وما معنى المغرب الجواني ؟
- قلت : هو في عُرْف خطابهم الداخلي، أي الأبعد، لأن المغرب كله على ساحل البحر الشامي من جنوبه، ... والأقصى، فاس ومراكش، وهو معنى الجواني.
- فقال : وأين مكان طنجة من بلاد المغرب؟
- قـــلت : فـــي الزاوية التي بين البحر المحيط، والخليج المسمى بالزقاق ، وهو خليج البحر الشامي.
- قال : وسبتة؟.
- قـــلت: عـــلى مسافة من طنجة على ساحل الزقاق، ومنها التعدية إلى الأندلس، لقرب مسافته لأنها هناك نحو العشرين ميلا.
- قال : وفاس؟.
- قلت: ليست على البحر، وهي في وسط التّلول، وكرسّي ملوك بني مرين.
- قال : وسجلماسة؟.
- قلت: في الحد ما بين الأرياف والرمال من جهة الجنوب.[1]

فـــالحوار هـــنا يتّسم بالتّركيز والإيجاز، فواضح ما في هاتين القطعتين من براعة، إنما يقوم على التعليل والحوار، والتدقيق في رسم أجزاء الصورة، ونقل الواقع كما هو.

ويحســـن التنـــبيه عـــلى أن الحـــوار عنصر سردّي، تعتمده الرحلات التي يكون موضـــوعها عـــلميّ زيّـــاريّ، والـــتي يقـــوم فيها أصحابها بالتقاء الناس والاجتماع بهم ومحاورتهم، سواء لسبر أغوارهم أو لمعرفة مستواهم، أو لامتحانهم.

[1] التعريف بابن خلدون، ص 409-411.

وعن مجالس العلم والعلماء، ونستشف من قوله، علامات تدهور الثقافة بتلمسان وإهمال أهلها للعلم والعلماء. هذا ما جعل المقري يتعجّل في الخروج من تلمسان، متجها مرة أخرى إلى المغرب الأقصى، فدخل فاس في سنة (1013 هـ)، واستقر هناك، حيث وجد جوّا ملائما، ومجتمعا متعطشا للعلم، وقد وصف ذلك قائلا: " ... حللت الحضرة الفاسية – حاطها الله– حيث المجالس غاصة، بالعامة والخاصة، والمساجد آهلة معمورة، والمشاهد بالزوار مغمورة، وحُلل المعارف فضفاضة، والعوارف الجليلة مفاضة"[1].

واعترافا بمكانة المقري العلمية، أُسندت إليه، حين مُقامه بفاس، عدّة وظائف، كالفتوى والخطابة والإمامة، وقد صرّح بذلك قائلا: "... تَوَلّيتُ الخَطَابة والإمامة بجامع القرويين من فاس المحروسة، مضافين إلى الفتوى ... وأقمت على ذلك خمس سنين وأشهرا، ثم قوّضت الرّحيل إلى المشرق"[2].

ويظهر من سياق حديث المقري أنه تولى وظيفتي الإمامة والخطابة في الأعوام الأخيرة من إقامته في فاس، أي حوالي سنة 1021 هـ.

وقد كانت حالة المقري المادية – حين إقامته بفاس – حسنة للغاية، فقد ذكر حادثة جرت له، كتب عنها يقول: "... وقد رأيت بمدينة فاس عام ستة وعشرين وألف، حجرا أسودا قدر الكف، مكتوب فيه بقلم القدرة (لا إله إلا الله) في ناحية، و(محمد رسول الله) من الناحية الأخرى... وقد أعطيت فيما مالكته وزنه مرتين ذهبا فامتنعت، فَرَغّبْتُها بكل وجه ممكن، فلم تفعل، وبقي عندي أياما ورددته لها"[3].

وقد كان المقري مُدّة تواجده بالمغرب الأقصى يغتنم الفرصة لزيارة أضرحة الأولياء والصالحين، فقد ذكر أنه زار قبر "أبي العباس أحمد بن جعفر السبتي" مرارا كثيرة، وقال أنه مقصود بإجابة الدعاء[4].

كما زار ضريح الولي الصالح، أحمد بن عاشر في سلا، وقال أن الناس يشدون الرحال إليه من أقطار المغرب.[5]

---

[1] أزهار الرياض، ج1، ص 4.

[2] نفح الطيب،ج6، ص 265.

[3] ينظر: المقري، محمد بن عبد الكريم، ص 173.

[4] نفح الطيب، ج7، ص 127.

[5] المصدر نفسه، ج5، ص 275.

ولم ينس المقري زيارة قبر الملك الشاعر المعتمد بن عباد[1]، وقد حدثنا عن ذلك: قائلا: "وقد زرت قبر المعتمد، والرميكيّة أم أولاده، حين كنت بمراكش المحروسة، وعُمِّي عليّ أمر القبر المذكور، وسألت عنه من تُظّن معرفته له، حتى هداني إليه شيخ طَعن في السن، وقال لي: "هذا قبر ملك ملوك الأندلس، وقبر حظيّته التي كان قلبه بحبها خفاقا".[2]

ويحدثنا المقري عن شعوره لحظة وقوفه على قبر المعتمد، قائلا: "... فرأيته (أي القبر) في ربوة حسبما وصفه ابن الخطيب رحمه الله تعالى في الأبيات[3]، وحصلت لي من ذلك المحل خشية وادّكار، وذهبت بي الأفكار في ضروب الآيات، فسبحان من يؤتي ملكه من يشاء، لا إله غيره، وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين"[4].

وبعد أن أقام المقري بالمغرب الأقصى، حوالي الأربعة عشر عاما، قرر الرحيل إلى المشرق، ولما أزمع على الأمر، توسل إليه أهل فاس كي يبقى بين ظهرانيهم، وأن لا يغادر البلاد،فاعتذر لهم، وتأسف كثيرا على فراقهم، وتمثل بيتا من الشعر بعث به إلى السلطان زيدان[5] صاحب مراكش، هذا البيت هو:

محبَّتـــي تَقْتضـــي مقـامـــي وحـالتـــي تَقْتضـــي الرَّحيـــلا [6]

فأجابه السلطان صاحب مراكش ، بقوله:

لا أَوْحَـشَ اللّـــه منـك قَوْمـــا تَعَـــوَّدُوا صُنْعَـك الجميـــــلا

أما عن سبب خروج المقري من المغرب الأقصى، فهناك من يرجعه إلى المكائد التي دبّرها له حُسّاده، والأكاذيب التي اختلقوها ضده، فنجده يشتكيهم إلى الله، قائلا:" ضاعف ما به (أي قلبه) كذب حاسدا افتراه، يأكل المحاسن، ويجهل بمساويه أن يحسن،

---

[1] هو المعتمد على الله بن عباد بن أبي القاسم محمد بن عباد، ولد سنة 432 هـ بباجة الأندلس، وتولى عرش إشبيلية سنة 461 هـ، توفي بالمغرب الأقصى سنة 488 هـ، (أنظر : المعتمد بن عباد، علي أدهم، ص 57، 94، 333، دار القدس، بيروت).

[2] نفح الطيب، ج5 ، ص275.

[3] يقصد الأبيات التي أنشدها لسان الدين ابن الخطيب ، حين زار قبر المعتمد، منها قوله:

قد زرت قبرك عن طوع بأغمات * رأيت ذلك من اولى المهمات

كرمت حيا وميتا واشتهرت علا * فأنت سلطان أحياء وأموات

[4] نفح الطيب، ج4، ص 237 و ص356.

[5] هو السلطان زيدان بن أبي العباس المنصور بن أبي عبد الله المهدي، كان أميرا على مكناس سنة (999 هـ) في عهد والده، (أنظر: ذرة الحجال، ج1، ص 277).

[6] البيت للشاعرعلي بن عبد العزيز الحضرمي (خلاصة الأثر، ج1، ص 303).

ويعيد الحق باطلا، والحال عاطلا، ويقلب المنحة محنة، ويرى المصافاة إحنة، ... يشتغل بما لا يعنيه، ويُعرض عمّا يقربه إلى ربّه ويدنيه، إلى الله المشتكى من هذا وأضرابه"[1].

ولعل السبب الأساسي الذي جعل المقري يرتحل إلى المشرق، هو قضاء فريضة الحج، وزيارة الحرمين الشريفين، والعلمين المنيفين.

وفي أواخر شهر رمضان عام (1027 هـ) غادر المقري فاس، وقد حدثنا عن ذلك قائلا: " ... إنّه لمّا قضى الملك الذي ليس لعبيده في أحكامه تعقب أو ردّ، ولا محيد عما شاءه سواء كره ذلك المرء أو ردّ، برحلتي من بلادي، ونُقلتي عن محل طارفِي وتلادي، تاركا المنصب والأهل والوطن والألف"[2].

وفي شهر ذي القعدة من نفس السنة، وصل المقري إلى ثغر تاطوان، ثم ارتحل من تطوان إلى الجزائر عن طريق البحر، متجنبا المرور عبر تلمسان، وعن ذلك قال: "... سافرت من ثغر تطوان – حرسها الله– في غراب[3] للجزائر المحمية في ذي القعدة الحرام من عام سبعة وعشرين وألف، وكان ذلك في معظم البرد، والبحر مُخوّف جدّا"[4].

ثم انتقل المقري من الجزائر إلى تونس عبر البحر، ثم إلى سوسة، ثم إلى الاسكندرية. وقد لاقتهم في البحر أهوال أيقنوا منها بالهلاك لكن الله لطف بهم فنجّاهم. ولنترك المقري يُحدّثنا عن سفره في البحر من سوسة إلى الاسكندرية، وعن ما لاقى فيه من أهوال وأحوال، وقد وصف ذلك وصفا لطيفا، فكتب يقول: " ... إلى أن حللنا البحر، وحللنا منه بين السحر والنحر، وشاهدنا من أهواله، وتنافي أحواله، ما لا يُعبّر عنه، ولا يبلغ عن كُنْهِ ... فكم استقبلتنا أمواجه بِوُجُوه بواسر، وطارت إلينا من شراعه عقبان كواسر، وقد أزعجتها أكفّ الريح من وَكْرها، كما نبَّهت اللّجج من سُكرها، فلم تُبق شيئا من قوتها ومكرها، فسمعنا للجبال صفيرا، وللرياح دويّا عظيما وزفيرا، وتيقنّا أنّا لا نجد من ذلك إلا فضل الله مجيرا وخفيرا."وإذَا مَسّكُمُ الضُّرُّ في البَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إلا

---

[1] أزهار الرياض، ج1، ص 12 إلى 14.

[2] نفح الطيب، ج1، ص 13-14.

[3] الغراب يقصد به المركب الشراعي.

[4] ينظر: المقري، الحبيب الجنحاني، ص 44، مطبعة النهضة، تونس، 1955م.

آيّاه"[1]. وآيسنا من الحياة، لصوت تلك العواصف والمياه، فلا حيا الله ذلك الهول المزعج ولا بيّاه ..."[2].

ويواصل المقري وصف حاله وحال من معه ، في ذلك الهول العظيم، قائلا: " ... فقد اعترضت في لهوات البحر الشامي شجا، وقلّ من ركبه فأفلت من كيدها ونجا، فزادنا ذلك الحذر، الذي لم يُبْقِ ولم يذر ... وتشتّت أفكارنا فِرقا، وذُبنا أسى وندما وفَرقا، إذ البحر وحده لا كَميَّ يقارعه، ولا قويّ يُصارعه، ولا شكل يُضارعُه.

ثلاثةٌ ليس لهـا أمـانُ البحرُ والسلطانُ والزمـانُ

... إلى أن قضى الله بالنجاة، وكلٌّ ما أراد فهو الكائن، وإن نهي عنه وأخطأ المائن، فرأينا البر وكأن لم نره، وشُفِيت به أعيننا من المَرَه[3]، وحصل بعد الشدّة الفرج، وشممنا من السلامة أطيب الأرج"[4].

وقد لخص المقري مراحل رحلته من المغرب الأقصى إلى الاسكندرية في أبيات من أرجوزته (فتح المتعال)، قال فيها:

.. وعندمـا رحلـتُ للجزائـرِ أُنـس المُقيم والغريب الزائـرِ
والعـزْمُ للأمـاكـن الشريـفةْ ظِلالهـا ضافيـة وريـفـةْ
وقد تركـتُ الأهـل بفـاس ولمْ أبدأ بشـيء غيـر قصـدي للعلَـمْ[5]
وبعْـد ذا ركبـت بحـر سبتـةْ فجاءنـا الموجُ العظيـم بغتةْ
وهـال ذلك البحـر أيّ هَـوْلِ ووَصْفُـه يقصُـرُ عنـه قولـي
فسَجَّـل الإلـه بالتَّنفيـسِ مُـذْ جـيء بالمثـال[6] للرئيـسِ
وكنـتُ أرسلـت بـه إليـه والخوف أضحـى غالبـا عليه

---

[1] سورة الإسراء ، آية 67.

[2] نفح الطيب ، ج1، ص 33.

[3] المرَه: فساد العين لترك الكحل، (أنظر: فقه اللغة ، عبد الملك الثعالبي، ت: جمال طلبة، ص 138-140، دار الكتب العلمية ، بيروت-لبنان).

[4] نفح الطيب، ج1، ص 34.

[5] العلم: هو جبل بالمغرب الأقصى، دفن فيه العديد من الأولياء والصالحين.

[6] المثال: هو مثال نعل الرسول صلى الله عليه وسلم، يعتقد أن حامله لا يصيبه مكروه.

كذلك فـي سَفَرنـــــا من سُوسـةْ أهـوال البحـــــر شُوهدت محسوسةْ
مثـــل الجبـــــال أقبلت من اللُّجج فَقَدّر الرحمـــن منهـــــا بالفرج[1]

وفي شهر رجب من سنة (1028 هـ) وصل المقري إلى مصر، بعد خَوْضِ بحار، يدهش فيها الفكر وبحار، وجَوْبِ فياف مجاهل، يَضلّ منها القطا عن المناهل"[2].

وبعدما مكث المقري مدة قصيرة بمصر– كان قد جلس خلالها للتدريس بجامع الأزهر – عزم على السفر إلى الحرمين الشريفين، وقد عبّر على عزمه، قائلا: " .. ثمّ شمّرت عن ساعد العزم، بعد الإقامة بمصر مدة قليلة، إلى المهمّ الأعظم، والمقصد الأكبر، الذي هو سرّ المطالب الجليلة، وهو رؤية الحرمين الشريفين، والعلمين المنيفين، فسافرت في البحر إلى الحجاز، راجيا من الله سبحانه في الأجر الانتجاز"[3].

ولمّا بلغ المقري جدّة، بدت له أعلام البيت الحرام، فتمثل قول بعض من غلب عليه الشوق والغرام، وقد بلغ من أمانيه المرام.

وَافَـى الحجيـجُ إلى البيت العتيق وقَدْ سجـا للدُّجـــى فرأوا نُـورًا به بلغَا
عجّوا عجيجـا وقالـــوا الله أكبر ما للجوّ مُؤتلفـــا بالنـــور قد صُبِغـا[4]

ولدى وصول المقري إلى مكة المكرمة، أدّى العمرة وأكملها في أوائل ذي القعدة من عام (1028 م). وأقام هناك منتظرا أوان الحج.

وبعد أداءه فريضة الحج، قصد المدينة المنورة، فلما وصل إلى قبر سيد الوجود، أنطقته محبته وإيمانه، فنظم قصيدة ، هذه أبيات منها:

إليـْـك أفِـــرّ مـن زللـــي فِـــرَار الخَـــائـف الوَجِـــلِ
وكـــان مَـزارُ قَبـرك بالـــ مدينـــة مُنْتَـــهـــى أملـــي
خـوفـــي الله مـــا طمحـت لـــه نفســـي بـــلا خلـــل
فَخُـــذْ بيَـدَيْ غريـــق فـي بِحَـــار القَـــوْل والعمـــلِ

---

[1] ينظر المقري، محمد بن عبد الكريم، ص 192.
[2] نفح الطيب، ج1، ص 35.
[3] نفح الطيب، ج1، ص 39.
[4] المصدر نفسه، ج1، الصفحة نفسها.

.. فأنـــت مَـــــلاذٌ مُعتـصـــم وأنـــــت عِمَـــــــادٌ مُتَّكَـــــل
عليـك صـــــلاة ربّـــك جـــــــ ـــلّ فـــي الغدوات والأصـــــلِ[1]

وبعدما أتمّ المقري زيارته للمدينة المنورة، خرج منها متوجها إلى مصر، فوصلها في شهر محرم سنة (1029 هـ)[2]، وأقام بها حوالي الشهرين، ثم قرر زيارة بيت المقدس، فغادر مصر في شهر ربيع الأول من عام (1029 هـ)، متجها إلى فلسطين.

وقد قام المقري لدى وصوله إلى فلسطين، بزيارة المسجد الأقصى، والقدس الشريف، وقد عبّر عن انبهاره، عند زيارته للمسجد الأقصى، فقال: "... فلما دخلتُ المسجد الأقصى، وأبصرتُ بدائعه التي لا تُستَقصَى، بَهَرني جمالُه الذي تجلّى الله به عليه، وسألتُ عن محلّ المعراج الشريف، فأُرشِدتُ إليه، وشاهدتُ محلًّا أمّ فيه صلى الله عليه وسلم الرّسل الكرام الهداة"[3].

وبعد هذه الزيارة القصيرة، ودّع المقري القدس الشريف، عائدا إلى مصر، حيث اتّخذها نقطة انطلاق لعدة زيارات إلى الحرمين الشريفين. فقد كرّر الذهاب من مصر إلى مكّة المكرمّة خمس مرات، كما وفد على المدينة المنورة سبع مرات، وألّف هناك عدة كتب، منها كتابيه (فتح المُتَعال في وصف النِّعال)، و(أزهار الكَمَامَة في أخبار العمَامة).

وكانت عودته من الحجة الخامسة والأخيرة إلى مصر في شهر صفر من سنة (1037 هـ)، فلازم خدمة العلم بالأزهر الشريف.[4]

والملاحظ أن إقامة المقري في مصر، لم تكن هادئة وهانئة، فقد قوبل هناك بإهمال كبير من طرف علمائها وأهلها، وهذا دأبهم مع علمائنا المغاربة، فلم يكن حظ ابن خلدون فيها بأحسن من حظه.

وقد سُئِل المقري عن حظه بمصر، فقال: قد دخلها قبلي ابن الحاجب، وأنشد فيها قوله:

يـــا أهـــــل مصر وجدت أيديكم في بَذْلِهـــا بالسّخـــــاء مُنقبضَه
لمّـــا عدِمت القِـــــرَى بأرضـــكم أكَلْتُ كُتُبـــــي كأننـــــي أرَضَه[5]

---

[1] المصدر السابق، ج1، ص 40-41.
[2] المصدر نفسه، ج1، ص 45.
[3] نفح الطيب، ج1، الصفحة نفسها.
[4] المصدر نفسه، ج1، ص 46.
[5] خلاصة الأثر، ج 1، ص 304.

وقد أنشد المقري، متأسفا على فراق أهله وبلده، فقال:

تركتُ رُســـــومَ عـــزّي في بـــلادي وصِرتُ بمِصـــــرَ مَنسيّ الرّســـــومِ
ونفســـــي عِفْتُهـــــا بالذّل فيهـــــا وقُلت لهـــــا عن العَلْيَاء صُومـــــي
ولـــــي عزمٌ كحدّ السّيـــــف مـــاض ولكنّ الليـــالـــــــي من خُصُومي[1]

وتقول المصادر أن حالة المقري بمصر، وصلت إلى درجة كبيرة من الذل والهوان، حتى أنه احتاج إلى بيع كُتبه ليقتات، وفي بعض الأحيان عمل ناسخا للكتب. فما السبب الذي أجبر المقري على البقاء في مصر، وهذه هي حاله؟.

[1] خلاصة الأثر، ج1، ص 304.

لعلّ بقاء المقري في مصر، رغم ظروفه السيئة يعود إلى سببان:

الأول: اجتهاده في نشر العلم، ونشر عقيدة التوحيد السّنوسية. أما السبب الآخر، هو علمه الجيّد، أنّ مصر في القرن العاشر الهجري، كانت تُعتبر أعظم حاضرة للعالم الإسلامي، فهي تنعم بموقع استراتيجي هام، جعلها نقطة عبور إجبارية لكل المسلمين، فهو بذلك يستطيع لقاء أكبر عدد ممكن من طلاب العلم والعلماء والحجاج.

وقد غادر المقري مصر، مُتّجها إلى فلسطين، بقصد زيارة بيت المقدس، فقام بزيارة مقام إبراهيم الخليل (عليه السلام)، ومزار موسى (عليه السلام). وألقى عدة دروس بالأقصى الشريف، والصخرة المنيفة، فكان المقري يغتنم كل فرصة تتاح له، لنشر العلم، والتزويد بالمعارف، وقد أقام ببيت المقدس حوالي خمسة وعشرين يوما.[1]

وبعد ذلك، عزم المقري على الرحلة إلى دمشق، وقد عبر عن رغبته تلك، قائلا: " ... ثم حدث لي في منتصف شعبان، عَزْمٌ على الرحلة إلى المدينة التي ظهر فضلها وبان، دمشق الشام، ذات الحسن والحياء والاحتشام ... وهي المدينة المُستوليّة على الطّباع، المعمورة البقاع ... دخلتها أواخر شعبان، وحمدت الرحلة إليها، وجعلها الله من السّعي المشكور"[2].

فحلّ المقري بدمشق في أواخر شعبان سنة (1037 هـ)، وقد سُحِرَ بجمالها لدى رؤيتها، وقد نظم في ذلك قصيدة طويلة، قال في أبيات منها:

محاسنُ الشّام أجْلَى ... من أنْ تُحَدَّ بِحَدّ

لولا حمى الشّرع قُلنا ... ولم نَقِفْ عِند حَدّ

كأنّها مُعجزاتٌ ... مَقْرُونة بالتّحدّ[3]

فانبهار المقري بجمال دمشق وبهاءها، جعله يعجز عن التعبير عن شعوره، فاكتفى بقوله: "... ورأينا من محاسنها ما لا يستوفيه من تأنق الخطاب، وأطال في الوصف

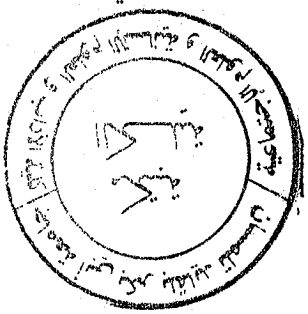

[1] نفح الطيب، ج1، ص 56-57.

[2] المصدر نفسه، ج1، ص 58.

[3] المصدر نفسه، ج1، ص 57.

وأطاب ... فالجامع الجامعُ للبدائع يُبْهر الفكر، والغُوطَة المنُوطة بالحُسن تَسْحَر الألباب، فللّه مرآها الجميل الجليل، وبيوتها التي لم تخرج عن عَروض الخليل"[1].

والمؤسف في الأمر، أنّ المقري لم يقُم بوصفٍ كامل لجمال دمشق، بأسلوبه الأنيق، هذا الجمال الذي جعل مؤلفا بارعا مثله يعجز عن التعبير. وقد عبّر المقري عن جميل امتنانه لأهل دمشق، بما لقيه لدى وصوله إليها من احتفاء وتقدير، فقال: ".. وكنت قبل رحلتي إليها (أي دمشق)، والوفادة عليها، كثيرا ما أسمع عن أهلها- زاد الله في ارتقاءهم- ما يُشوّقني إلى رؤيتها ولقائهم، فلما حللت بدارهم، ورأيت ما أذهلني من سبقهم للفضل وبدارهم، صدقَ الخُبْرُ الخَبرُ"[2].

وتمثّل المقري قول الشاعر، القائل:

وما زالَ بِي إحسانُهم وجميلُهم ... وبَرُّهم حتى حَسبتُهم أهلي

ولما دخل المقري دمشق، أنزله المغاربة في مكان لا يليق به، فأرسل إليه الشيخ أحمد بن شاهين[3] مفتاح المدرسة الجَقْمَقيّة، وكتب مع المفتاح هذه الأبيات:

كَنَفُ المقري شيخي مقرّي ... وإليه من الزّمان مفرّي

كَنَفٌ مثل صدره في اتّساع ... وعلومٌ كالبحر في ضمن بَحرِ

أحْمَدُ سَيّدي وشيخي وذُخري ... وسَميّي وذلك أشرف فخري

لو بغير الأقدام يسعى مَشُوقٌ ... جئته زائرا على وجه شكري[4]

وكانت للمقري بدمشق مجالس للدرس، فأقبل عليه الناس إقبالا لا نظير له، وكان يدرّس صحيح البخاري بالجامع الأموي، "وكان يوم ختمه حافلا، اجتمع فيه الألوف من الناس، وعلت الأصوات بالبكاء، وتكلّم بكلام في العقائد والحديث لم يُسمع نظيره قط،

---

[1] المصدر السابق، ج1، الصفحة نفسها.

[2] نفح الطيب، ج1، ص 62.

[3] هو الشيخ أحمد بن شاهين، قبرصي الأصل، دمشقي المولد، ولد سنة (995 هـ) وتوفي سنة (1053 هـ) (خلاصة الأثر، ج1، ص 210 وما بعدها).

[4] المصدر السابق، ج1، ص 304.

وتكلّم على ترجمة البخاري، ونزل عن الكرسي فازدحم الناس على تقبيل يده، وكان ذلك نهار الأربعاء السابع والعشرون من رمضان عام 1037 هـ"[1].

وأثناء استقرار المقري بدمشق، أحسّ بالشّوق إلى أهله ووطنه، لما لدمشق من شبه في الطبيعة والطباع مع بلاده، وقد عبّر عن شوقه، قائلا: "... وعند رؤيتي لتلك الأقطار، وتفاءلتُ بالعَودِ إلى أوطان لي بها أوطار، إذ التّشابه بينهما قريب في الأنهار والأزهار، ... وكنت قبل حلولي بالبقاع الشامية، مُولعًا بالوطن لا سواه، فصار بعد ذلك القلب مقسمّا بهواه"[2].

وكان المقري خلال إقامته بدمشق، يجالس علمائها ويتجاذب أطراف الحديث معهم في الأدب والأخبار والتراجم، وكان كثيرا ما يُطلب منه الحديث عن الأندلس وعلمائها. فكان يلقط لهم من أخبارها دُررا، وكانوا يتشوّقون دائما إلى سماع المزيد من ذلك، وقد حدّثنا المقري عن جانب من تلك المجالس العلمية، فقال: "... فَينْجَرُّ بنا الكلام والحديث شجون، إلى ذكر البلاد الأندلسية، فصِرْتُ أُورِد من كلام وزيرها لسان الدين بن الخطيب السلماني، فلما تكرّر ذلك غير مرّة على أسماعهم، طلب مني المولى أحمد الشاهيني إذ ذاك أن أتصدى للتعريف بلسان الدين في مُصنّف يُعرّب عن بعض أحواله وأنبائه"[3]. فوعد المقري علماء دمشق بإنجاز هذا العمل حين تُتاح له الفرصة وتتوفر له المصادر.

وبعد أن أقام المقري بدمشق زمنا، عرفت فيه نفسه الهدوء والاطمئنان، قضاها في تدريس العلم ومجالسة العلماء، قرّر العودة إلى مصر، وقد وصف لنا أسفه وحسرته على فراق دمشق وأهلها، فقال: " وارتَحلتُ عنها إلى مصر، وقد تركتُ القلب فيها رهنا، ومَلَكَ هواها منّي فِكرا وذِهنا، فكأنّها بلدي التي بها رُبّيت، وقراري الذي لي به أهل وبيت، لأن أهلها عاملوني بما ليس بشكره يدان، وها أنا لهذا التاريخ لا أرتاح لغيرها من البلدان، ولا يشوقني ذكر أرض بابل ولا بغدان"[4].

وكان المقري لما عزم السير عن دمشق، ألح عليه أهلها في البقاء بينهم، وكان يود ذلك كثيرا، لكن ظروفا – لا نعلمها – اضطرته إلى فراقهم، فاصطحبه صديقه أحمد بن

---

[1] المصدر السابق، ج1، ص 305.

[2] نفح الطيب، ج1، ص 66-67.

[3] المصدر نفسه،ج1، ص 70.

[4] المصدر نفسه، ج3، ص 37 وص 139.

شاهين، وأعيان من دمشق وأهلها إلى داريا، وهناك ودّعهم وودّعوه، فبكى وبكوا، وقد تمثّل المقري في ذلك الموقف الحزين، قول الشاعر:

وَدَّعْتُـــهُم ودُمُـــوعـــــي على الخُـــــدودِ غِـــــزَارُ
فاستَكْثَـــروا دمْـــع عينـــــــي لَمَّـــا استقلُّـــــوا وسَـــــارُوا[1]

وفي أوائل شوال من سنة (1037 هـ)[2]، ودّع المقري دمشق، بعدما قضى بها أياما كلها بهجة وسرور، وذكريات باقية على مرّ الدهور، ودّع البلاد التي قال عنها:

وَجَدْتُ بهـــا مـــا يَمْلأ العَيْـــن قُرّة ويُسلِـــي عن الأوطـــــان كُلّ غريبِ

وتمثّل فيها قول الشاعر:

نَزَلْنَـــــا بهـــــا نَنْوي المَقَـــام ثَلاثةً فطابَتْ لَنَـــا حتّى أَقَمْنَـــا بها شَهْرا[3]

وفي أواخر شوال من نفس السنة، وصل المقري إلى مصر للمرة الرابعة، عائدا من بلاد الشام، وبمجرد وصوله إلى مصر، شرع في تدوين كتابه (نفح الطيب)، الذي كان قد طالبه بتدوينه علماء دمشق، وقد حدثنا المقري عن ذلك قائلا: "... إنّي قد شرعتُ بعد الاستقرار بمصر في المطلوب، وكتَبْتُ منه نُبذة تَسْتحسنها من المُحبّين الأسماع والقلوب، وسلكت في ترتيبه أحسن أسلوب ..."[4].

وكان المقري أثناء ذلك، ملازما للأزهر الشريف، يلقي الدروس، كما كان على اتصال مستمر بأهل دمشق، وأهل المغربين الأوسط والأقصى، وكان كلما فرغ من أحد مؤلفاته، بعث به إلى أشياخه وتلامذته بالمغرب.

ثم قام المقري بزيارة أخرى لبيت المقدس، وعاد إلى مصر، عازما هذه المرة على الرحلة إلى الشام بعياله ليستقر بها نهائيا.

---

[1] المصدر السابق، ج1، ص 82.

[2] نفح الطيب، ج8، ص 342.

[3] المصدر نفسه، ج1، ص 59.

[4] ذكر المقري دواعي تأليفه لكتابه (نفح الطيب)، بإسهاب وتفصيل في: (نفح الطيب، ج1، ص 117 وما بعدها).

ولمّا "عزم المقري على سُكنى الشام، وذهب ليأتي بأهله من مصر، ولم يبق إلا أن يخرج منها، فاختْرمتْهُ المنيّة بمصر، ودفن بتربة المجاورين[1] سنة 1041 هـ"[2].

وهكذا انتهت حياة المقري، وانتهت معها رحلته، بعدما ترك أهله وآماله في وطنه، وقلبه في دمشق، وجثته في مصر، وكأنّ المقري أبَى إلا أن يجاور جُثمانه جَثامين أسلافه من الرحالة المغاربة، كابن مرزوق وابن خلدون وغيرهم.

وصدق الشاعر القائل:

مَشَيْنَاهَا خُطًى كُتِبتْ علينا ... ومن كُتِبتْ عليه خُطىً مشاهَا

وَمن كانت منيّتُه بأرض قوم ... فليس يَموت في أرض سِواها

---

[1] سمي هذا المكان بتربة المجاورين لأنه قريب من الجامع الأزهر، وبه يدفن غالب أهله المجاورين له، إذ لا يسكنها في الغالب إلا العلماء والغرباء. (ينظر: الرحلة العياشية، ج1، ص 131).

[2] فهرس الفهارس، ج2، ص 13. و شجرة النور الزكية، ص 300.

الفصل الثالث

الخصائص الفنيّة والموضوعيّة للرحلة

المبحث الأول : الخصائص الفنيّة.

1- التّشكيل الفنّي.

2- الخصائص الأسلوبيّة.

3- الخصائص اللغويّة.

المبحث الثاني: الخصائص الموضوعيّة.

1- مضامين الرحلة .

2- مواضيع الرحلة.

3- قيم الرحلة.

الفصل الثالث: الخصائص الفنية والموضوعية للرحلة وقيمها

إذا كـــان معظم الرحالة في العالم الغربي، لا ينتمون إلى ميدان الكتابة الأدبية، فإن الـــرحالة العرب كانوا كتابا قبل كل شيء، فغلب على كتاباتهم الطابع القصصي، يستندون بـــه إلى الواقـــع أحيانا، ويجنحون به إلى الخيال أحيانا أخرى، فَسَمَوْا بالرحلة إلى مرتبة الأدب الفنّيّ الصّرف، فقد كانوا روّادا عظاما في مجال أدب الرّحلات[1]. فعلى الرّغم ممّا يتّســم بـــه هـــذا الأدب من تنوّع في التّسجيل والأسلوب، من الوصف العامي إلى السّرد القصصـــي، إلى الحـــوار وغيره، فإنّ أبرز ما يميّزه أسلوب الكتابة الأدبي الرفيع، الذي يعتمد على السّرد القصصي المُشوّق، بما يقدّمه من متعة وفائدة في نفس الوقت.

وعـــليه، فـــإن أدب الرحلة عند العرب عموما، والمغاربة على الخصوص، تميز بمميزات أدبية متعددة، هذه بعض ملامحها:

المبحث الأول: الخصائص الفنية للرحلة:

1 – الشكل – الهيكل العام للرحلة–:

لم يلتزم الرّحالون –عموما– باتّباع منهجية محدّدة في كتابة رحلاتهم، فقد كان كلّ رحالـــة يســـجّل رحلته حسب الطريقة التي يراها مناسبة. فمن الرّحالة من سجّل رحلته عـــلى شـــكل مذكرات يومية، فيذكر غالبا الأيّام والتّواريخ، وما قام به في كل محطة من رحلته، وما شاهده في المدن والبلدان التي زارها، وكثافة نشاطه، ونوع هذا النشاط، ومن الـــرّحالة مـــن سجّل رحلته حسب مسارها بدءا من خروجه من بلاده حتى عودته إليها، ومـــنهم من سجلها حسب المناسبات التي تدعوه إلى ذلك، كلقاءه للعلماء وأهل البلاد التي يـــزورها، دون اهتمامه بتسجيل طريق رحلته، والبلدان التي مرّ بها، وتواريخ الحلول بها والخروج منها.

فالمُتَصـــفّحُ لكتب الرّحلات يجد صعوبة بالغة في تبويبها وتوزيع أغراضها، لأنها متداخـــلة ومتشـــابكة، عـــلى أن بعض الرحلات التزم فيها أصحابها بشكل معيّن، كرحلة الورتلانـــي، ورحـــلة ابن عمار، ورحلة التجاني، حيث أنّ هؤلاء الرّحالة اعتمدوا الشكل

---

[1] مجلة الفيصل . د.نبيل راغب. ص 74. عدد 88. السعودية . 1984.

التقـليدي العام الذي كان يسير عليه جلّ المؤلّفين العرب في مؤلّفاتهم الأدبية والتاريخية، والـذي يبـتدئ بمقدمة ثم موضوع ثم خاتمة، وسنحاول دراسة شكل الرّحلات على هذه الطريقة.

أ – الافتتاح :

فقد كان الرّحالة يبدأ تسجيل رحلته، بإنشاء مقدمة عامة، يتحدث فيها – غالبا– عن النّقاط الآتية:

* **الدافـع إلى القيام بالرحلة:** فقد رأينا في الفصل الأول، أن دوافع القيام بالرحلة متعددة، منها أداء فريضة الحج، أو طلب العلم، أو زيارة الأضرحة والأولياء الصالحين، لـذا كان الرحالة يهتم في مقدمة رحلته بذكر الدافع الأساسي للقيام برحلته. من ذلك مثلا، قـول ابـن بطوطة يتحدث عن سبب قيامه برحلته: "كان خروجي من مسقط رأسي ... منفردا عن رفيق آنس بصحبته، وركْبٍ أكون في جملته، لباعث على النفس شديد العزائم، وشوق إلى تلك المعاهد الشريفة كامن في الحيازم، فجزمت أمري على هجر الأحباب من الإناث والذكور، وفارقت وطني مفارقة الطيور للوكور"[1].

فدافـع ابن بطوطة في رحلته، كان القيام بالركن الخامس وهو أداء فريضة الحجّ، وزيارة الأماكن المقدسة.

أمـا الـرحّالة الحسين الورتلاني، فقد تعدّدت دوافع رحلته، وقد ذكرها في قوله: "ونحـن عـلى ذلك من النّاوين لأنواع الخير، من حجّ وجهاد وزيارة، وعلم وتعلّم وإفادة واسـتفادة، وأنواع الخيرات على اختلاف أصنافها، وتنوّع أجناسها، فإن عشنا فعلنا، وإلا كفتنا النيّة"[2].

* **الداعي إلى تأليف الرحلة:** تعدّدت الدواعي والأسباب التي جعلت الرحالة يُدوّن رحلـته، مـنها إطـلاع الـناس على أخبار البلاد التي زارها، أو رغبته في تخليد ذكره ورحلـته، أو رغبته في إثبات سنده العلمي، وذكر شيوخه. وقد ذكر الرحالة الورتلاني، سـبب قيامه بتدوين رحلته فقال: "لما رأينا من وقوع الإهمال في تلك التراجم في وطننا،

---

[1] رحلة ابن بطوطة ، ص 14.

[2] رحلة الورتلاني، ص 614.

فرسمنا كل ذلك رسما جيدا، فحفظت من كل خلف وصف أسلافه، ونقلت من كل فرع أخبار أصله، علما منّي أنه لا يَمُجّه السمع السليم، والطبع المستقيم"[1].

* ذكر مواضيع الرحلة: قد يشير بعض الرّحالة إلى المواضيع الجانبية التي تطرق إليها في كتاب رحلته، كإيراده لبعض القصائد سواء كانت من نظمه أو نظم غيره، أو إيراده لبعض الرسائل التي تلقّاها أثناء رحلته. أو ذكره بعض الفتاوى الصّادرة عنه والإجابات عن بعض الأسئلة المطروحة عليه. من ذلك مثلا، ذكر الرّحالة التّيجاني للمواضيع التي أوردها في متن رحلته، فقال: "هذا تقييد يشتمل على وصف ما شاهدته في هذه السفرة المباركة من البلاد، مضمّن ذكر أحوالها وصفاتها، وبيان طرقها ومسافاتها، والإشارة إلى مُفتتحِيها وبُناتها، وأحوال من اشتملت من أصناف العوالم، وما يتميّز به كل بلد من الآثار والمعالم، وقد أُلبِس ذلك من حلّة النّظم والنّثر مما ورد في هذه السّفرة إليّ، أو صدر عنّي، استفتاح خطاب أو ردّ جواب"[2].

وقد ذكر الرّحالة العبدري مواضيع رحلته، فقال: "فإني قاصد تقييد ما أمكن تقييده، ورسم ما تيّسر رسمه وتسويده، مما سما إليه الناظر المطرق، في خبر الرحلة إلى بلاد المشرق، من ذكر بعض أوصاف البلدان، وأحوال من بها من القُطّان، حسبما أدركَهُ الحسّ والعيان، وقام عليه بالمشاهدة شاهد البرهان، من غير تورية ولا تلويح، ولا تقبيح حسن ولا تحسين قبيح، بلفظ قاصده لا يحجم مفردا، ولا يجمع فيتعدى المدى، مُسطِّرا لما رأيته بالعيان، ومُقرِّرًا له بأوضح بيان، حتى يكون السامع لذلك كالمبصر، وأذكر مع ذلك ما اسْتَنْفَذْتُهُ من خبر، وأنشدته من دُرَرٍ، ... وأُثبت من خلال ذلك من نظمي ما يغلغل إليه الكلام، وأضيف إلى ذلك ما يضطر إليه التبيان، فيما قصر عنه العيان من نبذة مذكورة ونتف مشهورة ونكت مرسومة في الكتب المسطورة ..."[3].

وقد يتحدث الرحالة في مقدمة رحلته عن المتاعب والمشاق التي اعترضته في طريق رحلته، كخطر قطاع الطرق، وشدة الحر في الصحراء، وصعوبة الطريق، وهول البحر وتغيّر أحواله. وقد أجمل الرحالة محمد بن مرزوق كل ذلك في قوله:

---

[1] المصدر السابق، ص 290.

[2] ينظر تاريخ الأدب العربي ، عمر فروخ، ج6، ص 387، دار العلم للملايين ، بيروت، 1983م.

[3] ينظر : المرجع نفسه، ج6، ص 402.

"... وعَرَضَتْ لي عوارض امتحان، وتقلّبات أزمان، واختلاف أحوال، وظعن وترحال، وكابدت فَقْد الأقران، وقِلّة الإخوان، وجفوة الأوطان، فحَصَلْتُ في بلاد الاغتراب، وذُقت ألم البُعد بَعْد الاقتراب، وأثقلني العيال، وآذني الإقلال".[1]

ب – الموضوع والغرض:

وهي ما يسميه الرحالة، الغرض المقصود، وهو أساس الرحلة وهدفها ، يتناول فيه الرحالة ما حدث له أثناء رحلته، فيذكر تاريخ خروجه من بلاده، من ذلك – مثلا– قول الرحالة أحمد المقري: ".. إنه لما قضى الملك الذي ليس لعبيده في أحكامه تعقب أو ردّ، ولا محيد عما شاءه سواء كره ذلك المرء أو ردّ، برحلتي من بلادي، ونُقلتي عن محلّ طارفي وتلادي، وذلك في أواخر رمضان من عام 1027 هـ". [2]

ثم ينتقل الرحالة إلى تسجيل مراحل رحلته بالتدريج، فيذكر البلدان التي مرّ بها أو زارها، ويصف مشاهداته، ويذكر الظواهر التي لفتت انتباهه أو رآها غريبة عن ما ألفه في وطنه، كما يتحدّث عن لقاءاته للناس والعلماء والتلاميذ.

وإنّ تسجيل لقاءاته بالعلماء والشيوخ، يجعله يصف حرارة اللقاء بهم، وغبطته بحسن استقبالهم واهتمامهم، وربّما يترجم لهؤلاء العلماء في رحلته، فيذكر ما أخذه من العلم منهم، وما الكتب التي أجازوه عليها. وقد يهتمّ الرّحالة بتسجيل تاريخ البلاد التي يمرّ بها، والظواهر المهمة والجديرة بالتسجيل.

وقد يدوّن الرحالة تاريخ وصوله إلى البلاد التي كانت مقصده، فيتحدث عن مشاهداته فيها، كما يتحدّث عن طريقة إنجازه لما ارتحل من أجله، سواء كان طلبا للعلم، أو أداء لفريضة الحج، أو غيره من الدوافع.

وفي الأخير، يأخذ الرّحالة في الحديث عن عزمه للعودة إلى بلاده، وعن شوقه إلى أهله ووطنه، وقد يقوم بوصف طريق عودته، لاسيما إذا غيّر مسار رحلته لدى عودته إلى بلاده لمزيد من المشاهدة والفائدة.

---

[1] المسند الصحيح، ص 92.

[2] نفح الطيب، ج1، ص 13-14.

ج – الإنهاء والخاتمة:

لـم تكـن الخاتمة ضرورية في الرحلة، لذا لم يلتزم معظم الرحالة بوضع خاتمة لكـتب رحلاتهم، إلا ما كانوا يذكرونه من تاريخ حلولهم ببلادهم، أو حديثهم عن شعورهم لـدى عودتهـم سـالمين إلى أهلهم وأوطانهم. على أن بعض الرحالة كان يضع ما يشبه الخاتمة في آخر كتاب رحلته، يسجل فيها بعض ما استفاده من القيام برحلته، وربما يورد بعض المراسلات والمخاطبات التي وردت عليه أثناء رحلته، أو يجيب على أسئلة طُرِحت عـليه من قبل طلبة العلم أو المستفسرين، وقد لا تحضره الإجابة أثناء ذلك، فيجيب عنها بعـد المطالعـة في آخر كتاب رحلته، كما فعل الرحالة الورتلاني، والعبدري، والتجاني، والناصري.

2- الخصائص الأسلوبية:

الأسـلوب هو الطريقة التي يسلكها الكاتب في تأليف كلامه، واختيار ألفاظه، وهو الطـريقة التي يستعملها في التعبير عن موقفه، والإبانة عن شخصيته الأدبية المتميزة، لذا لا نسـتطيع تمييز نوع محدد من الأسلوب في كتب الرحلات، لأن كل رحالة كان يعتمد الأسلوب الخاص به، أو الأسلوب الذي عرفته الفترة التي كان يعيش فيها.

فـإذا حاولـنا تحديـد نـوع الأسلوب الذي تميزت به الرحلات، وجدناه ينقسم – عموما- إلى ثلاثة أنواع رئيسية، وهي:

أ – الأسلوب المسجّع:

وهو الأسلوب الذي تتوفر فيه ضروب من القيم التصويريّة والموسيقيّة، كالتّشابيه، والاسـتعارات، والكـنايات أحيانـا، والأسجاع والتّنسيق أحيانا أخرى. فقد اعتنى بعض الـرّحالة بكتب رحلاتهم عناية بالغة، فوفرّوا لها ضروبا من الجمال الفنّي البديع، واهتمّوا بتـنميق لغـتهم، واخـتيار ألفاظهم، فاعتمدوا في كتابة رحلاتهم اعتمادا كلّيا على السّجع والتّجنيس والصّور والتّشبيهات والاستعارات.

وأمثـلة هذا الأسلوب نجده كثيرا في كتب الرحلات، مثل ما نجده عند الرّحالة ابن جبير، حين يصف مدينة حلب، قائلا: "... بلدة قدرها خطير، وذكرها في كل زمان يطير، خُطّابهـا مـن الملوك كثير، ومحلّها من النّفوس أثير، ... لها قلعة شهيرة الامتناع، بائنة

الارتفـــاع، معدومـــة الشّـــبه والنظير في القلاع، تَنزّهتْ حصانة أن تُرام أو تُستطاع ... فســـبحان من أحكم تقديرها وتدبيرها، وأبدع كيف شاء تصويرها، عتيقة في الأزل، حديثة وإن لم تزل، قد طالت الأيام والأعوام وشيّعت الخواص والعوام ... هذه منازلها وديارها، فـــأين سُـــكّانها قديمـــا وعُمّارهـــا؟ وتلك دار مملكتها وفناؤها، فأين أمراؤها الحمدانيّون وشـــعراؤها؟ أجل، فَني جميعهم ولم يأنِ بعد فناؤها، فيا عجبا للبلاد تبقى ويذهب أملاكها، ويهلكون ولا يُقْضى هلاكها ...". [1]

فأســـلوب ابـــن جبير في هذا النص، وغيره من نصوص رحلته، يمتاز بكثير من الحيوية، لما فيه من الصنعة والأناقة، فهو يلجأ إلى السجع، لكنه يعالجه بكثير من المهارة. ونجد هذا النوع من الأسلوب المسجع – أيضا- عند الرحالة العبدري، الذي يصف مدينة طرابـــلس قائلا: "... وهي للجهل مأتم، وما فيها للعلم من غرس: أقفرت ظاهرا وباطنا، وذَمّهـــا الخبير بها سائرا وقاطنا، تلمع لقاصدها لمعان البرق الخُلّب، وتُريه ظاهرا مُشرقا والباطن قد قَطّب، اكتنفها البحر والقفر، واستولى عليها النفاق والكفر، لا ترى فيها شجرا ولا ثمـــرا، ولا تخـــوض في أرجائها حوضا ولا نهرا، ليس على ناشئ منهم فضل لذِي شَيبَة، ولا لذي الفضل بينهم هيبةٌ، ترى أجساما حَاضرَة، والعَقل في عُقل"[2].

ونجـــد كذلك هذا النوع من الأسلوب عند الرحالة القلصادي، الذي يصف شيخه أبا عبد الله بن مرزوق، قائلا: "... حلّ كنف العلم والعُلا، وجلّ قدره في الجلّة الفضلا، قطع الـــليالي ساهرا، وقطف من العلم أزاهرا، فأثمر وأورق، وغرّب وشرّق، حتى توغّل في فـــنون العـــلم واســـتغرق، فلا ترى أحسن من لقائه، ولا أسهل من إلقائه، كانت له أوراد معـــلومة، وأوقـــات مشهورة، وكانت له بالعلم عناية، تُكشف بها العِماية، ودراية تعضدها الرواية"[3].

فهـــذه النصـــوص، تحتوي على كثير من سمات الأسلوب المُسجّع، من ذلك مثلا، السّـــجع (الـــذي هو توافق الفاصلتين من النثر على حرف واحد) عند ابن جبير في قوله، (تقديرها، تدبيرها، تصويرها، تدويرها) و(عمارها، سكانها، خطابها، وأملاكها، هلاكها).

---

[1] رحلة ابن جبير ، ص 177- 178.

[2] رحلة العبدري، ص 69.

[3] رحلة القلصادي، ص 49.

ونجده كذلك عند العبدري في قوله: (باطنا وقاطنا) و(شجرا، ثمرا، نهرا) و(البحر، القفر، الكفر). ونجده كذلك عند القلصادي في قوله: (أورق، شرق، استغرق).

ومـــن سمات الأسلوب المسجّع في هذين النصين، الجناس بنوعيه، التام والناقص، مـــن ذلك – مثلا– الجناس التام (هو اتفاق اللفظان في أنواع الحروف وأعدادها وترتيبها) عند العبدري في قوله: (فضل، ذي فضل) و(عَقْل، في عُقْل).

والجناس الناقص، عند العبدري في قوله: (الكفر، القفر) و(شيبة، هيبة). وعند ابن جبير في قوله: (تدبيرها، تدويرها) و(ملاكها، هلاكها).

ومن سمات هذا الأسلوب أيضا، الطباق، من ذلك – مثلا – عند العبدري في قوله: (الجهل □ العلم) ، و(ظاهرا □ باطنا) و(سائرا □ قاطنا).

وعند ابن جبير في قوله: (عتيقة □ حديثة) و (الخواص □ العوام).

فهـــذه النصوص وما شابهها، تمثل نموذجا واضحا للالتزام السجع في الجمل، والموازنة بينه، والإكثار من الجناس والطباق، عند هؤلاء الرحالة وغيرهم.

عـــلى أن بعـــض الرحلات، وإن اعتمد أصحابها السجع في تدوينها، فقد جاء أسلوبها غثّا مُتكـــلّفا، ممّـــا جعـــل المؤلف يخرج عن غرضه المقصود، مثل قول الرحالة أبي راس الناصري، يصف مدينة فاس : ".. ورحلت إلى مدينة فاس محل العلم والإيناس، وهي قبة الإســـلام والسّـــلم والاستســـلام، المقـــام الأعلى، والمثابة الفضلى، فهي أم قرى المغرب الوافـــرة، وخـــزائن المزائـــر والشهرة الساحرة، والأنباء المسافرة، ذات الأرجاء الدانية والقاصية، والأطواد الراسخة الراسية".[1]

فأسلوب أبي راس في رحلته على هذه الوتيرة من السجع المُتكلّف وإقحام الصور والاستعارات، وإيراد المعنى الواحد في الجمل العديدة. وهذا النوع من الأسلوب هو الذي قصده ابن خلدون بقوله : ".. وقد استعمل المتأخرون أساليب الشعر وموازينه في المنثور، إذا تَأمّلْتَه وجَدْتَـــه من باب الشعر وفنّه، وما يحمل عليه أهل العصر، إلا استيلاء العُجمة على ألسنتهم، وقصُورهم لذلك عن إعطاء الكلام حقّه من مطابقته لمقتضى الحال،فعجزوا عن الكلام المرسل وولعوا بهذا المُسجّع يلفقون ما نقصهم من تطبيق الكلام على المقصود

[1] فتح الإله ومنته، أبي راس الناصري، ص 101.

ومقتضـــى الحال فيه، ويجبرونه بذلك القدر من التزيين بالأسجاع والألقاب البديعة، حتى أنهم ليخلون بالإعراب في الكلمات، والتصريف"[1].

ب – الأسلوب المزدوج :

ويُعرف أيضا بالأسلوب المتوازن، وهو أسلوب فيه شيء من التصنع، ويعتمد على الســجع، لكنه لا يتقيد به دائما، فهو يمزج بين السجع وغيره مزجا معتدلا. كما يقوم هذا الأســلوب عــلى التوسط بين لغة الخاصة، وما قد يكون فيها من إغراب في اللفظ، ولغة العامــة، ومــا قد يكون فيها من ابتذال. ولعل هذا النوع من الأسلوب هو الغالب في كتب الــرحلات، ومن أمثلته عند الرحالة ابن جبير، الذي يصف لنا جانبا من رحلته في البحر، فيقول: " .. وفي ليلة الأربعاء، عصفت علينا ريح هال لها البحر، وجاء معها مطر ترسله الرياح بقوة كأنه شآبيب سهام، فعَظُم الخطب، واشْتَدّ الكرب، وجاءنا الموج من كل مكان أمــثال الجبال السائرة، فبقينا على تلك الحال الليل كله، واليأس قد بلغ منّا مبلغه، وارتجينا مع الصباح فُرجة تخفّف عنا بعض ما نزل بنا ... فجاء النهار بما هو أشد هولا، وأعظم كربا، وزاد البحر اهتياجا، وأربدت الآفاق سوادا، واستشرت الريح والمطر عصوفا، حتى لم يثبت معه شراع .... فحينئذ تمكن اليأس من النفوس، وارتفعت أيدي المسلمين بالدعاء إلى الله عــز وجــل، وأقمنا على تلك الحال النهار كله، فلمّا جنّ اللّيل فترت الحال بعض فتور، وسرنا في هذه الحالة كلها بريح الصواري سيرا سريعا".[2]

ومن أمثلته كذلك، عند ابن جبير، حين يصف أخلاق أهل بغداد، قائلا: "أما أهلها (أي بغــداد) فــلا تكــاد تــلقى منهم إلا من يتصنّع بالتواضع رياء، ويذهب بنفسه عجبا وكــبرياء، يــزدرون الغــرباء، ويُظهرون لمن دونهم الأنفة والإباء، ويستصغرون عمّن ســواهم الأحــاديث والأنباء، قد تصوّر كلّ منهم في مُعتقده وخلده أن الوجود كلّه يصغُر بالإضــافة لبــلده، فهــم لا يســتكرمون في معمور البسيطة مثوًى غير مثواهم، كأنهم لا يعتقدون أن لله بلادا أو عبادا سواهم، يسحبون أذيالهم أشرا وبطرا، ولا يُغيّرون في ذات الله مــنكرا، يظــنون أن أســنى الفخار في سحب الإزار، ولا يعلمون أن فضله بمقتضى الحديث المأثور – في النار، يتبايعون بينهم بالذهب قرضا، وما منهم من يحسن لله قرضا،

---

[1] مقدمة ابن خلدون، ص 567-568.

[2] رحلة ابن جبير، ص 43.

2- مواضيع الرحلة:

رأينا – آنفا- أن موضوع الرحلة الأساسي هو الوصف، إلا أن هناك من الرحالة من يريد التوسع في موضوع رحلته، فيتطرق إلى أغراض مختلفة، يسجلها في ثنايا رحلته، فيصبح كتاب الرحلة عبارة عن مؤلف ضخم محشو بالمعلومات المختلفة. فقد تجمع الرحلة في محتواها بين مواضيع شتى، نذكر منها:

أ – التاريخ: قد يكون الرحالة بصدد وصف مكان من الأماكن، أو وصف مَعْلَمٍ أثَريّ، فيُورد أخبارا تساعد القارئ على فهم بعض الأمور والحوادث التي لا تُعرَف حقيقتها إلا بمعرفة تاريخها. ومثل ذلك ما فعله الرحالة ابن جبير، حين وصف جبل ثور بمكة، فتطرق إلى الحديث عن خروج الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة وبرفقته أبو بكر الصديق، وذكر قصة لجوئهما إلى غار ثور، وما جرى لهما في هذا الغار[1]. وقد فعل ابن جبير ذلك ليُبيّن سبب اهتمامه بوصفه، وما هي قيمته الدينية والتاريخية.

ب – الجغرافيا: يحرص بعض الرحالة على وصف العمران والطرق والمسالك فيتخذ وصفه طابعا جغرافيا. إلا أن الرحالة يختلف وصفه عن وصف الجغرافي المتخصص، حيث أنه لا يقيّد نفسه بنظام معين في وصف البلدان التي يزورها ويتجول فيها، كما أنه لا يلتزم التحري والتدقيق في رواية الأخبار التي يُوردها، أو التأكد من صحتها. ومع ذلك، فإن كتب الرحلات تُعتبر مصدرا هاما في الوصف الجغرافي، والتعرف على المسالك والطرق.

جـ – الأدب: قد يورد بعض الرحالة، في كتاب رحلته، بعض إبداعه الأدبي، شعرا ونثرا، كما يورد بعض الرسائل التي وصلته أثناء رحلته، وردوده عليها. وقد يورد نصوصا شعرية ونثرية ليست له، إنما يثبتها في رحلته كشواهد. فقد أورد عبد الرحمن بن خلدون جُلّ الرسائل التي كانت تصله من صديقه لسان الدين ابن الخطيب، وأجوبته عليها، كما أورد بعض خطبه وقصائده، وكذلك فعل رحالة آخرون، مثل العبدري، والتجاني، وأبي راس. فقد أورد أبو راس مجموعة من قصائده في كتاب رحلته، منها قصيدة مدح بها باي وهران، محمد بن عثمان، قال فيها:

---

[1] رحلة ابن جبير ، ص 94.

ولكـنّ إحســـــان المَليـــــك مُحمّد ... دَعَتْنِـــــي إلى شعر في مدحه بَارِعُ
فَســـار مَسيرَ الشّمس فـــي كـــلّ بلدةٍ ... وهبّ كريـــــحٍ يجلِبُ الغيثَ نَافـــعُ
ففـــاق ملـــوك الأرض طُرًّا كأنّهم ... نُجـــــومٌ وهو بينها البـــدر طالـــعُ
فقد سَـــادهم عِلمـــاً وحلمـــاً ونجدةً ... وبالجـــود والإقـــدام الكل جـــامـــعُ
تَعـــوّد بَسطَ الكَـــفّ حتـــى لـــو أنّه ... أراد القِبَاضَـــا لم تُطعـــهُ الأصابـــع[1]

د – الحكايـــات والقصص الشعبي: قد يكون الرحالة – أحيانا – مجرّد جواب أفاق، دقيـــق الملاحظـــة، يـــرغب فـــي الاطلاع على كل شيء غريب، فيصدق أمورا غريبة، وحكايـــات عجيـــبة دون تمحيص، كقصص كرامات الأولياء والصالحين، وقصص الجن وغيـــرها. فيتخـــلل عـــرض الرّحلة كثيرا من القصص والحكايات الشعبية. فالرحالة ابن بطوطـــة – مـــثلا – كان رجلا عاديا، ولم يكن عالما مفكرا، لذا كان قريبا إلى المعتقدات الشـــعبية، فكـــان اهـــتمامه في رحلته بالمسائل المتعلقة بالأولياء والدراويش، وكان كثير الاعـــتقاد فـــي صـــحة الكرامات التي حُكيت له، لهذا وقف كثير من الباحثين والدارسين موقـــف الـــتحفظ ممـــا جاء في رحلته، ووصفوها على أنها ضرب من الحكايات الشعبية والأســـاطير. فرحـــلة ابـــن بطوطـــة ورحلة أبي حمد الغرناطي تحتويان على كثير من القصص والحكايات، كقصة المدينة التي يوجد فيها مخلوقات نصفها آدمي، ونصفها الآخر حيواني . وقصة مدينة النحاس بالأندلس، وقصص كثيرة من هذا القبيل.

هـــ – قضايا طارئة: يهتم بعض الرحالة– أحيانا– بتسجيل بعض القضايا التي تكون محطّ اهتمام العلماء والمثقفين في عصره، مثل قضايا الدّخان والحشيش والقهوة التي كانت مـــن بين القضايا البارزة في القرن الحادي عشر للهجرة، فكان بعض الرحالة يسجل في رحلته بعض الفتاوى الشرعية في مثل هذه القضايا، وربما يصدر فتاوى خاصة به، مثل مـــا فعل الرحالة أبو راس، حين تحدث عن شرب القهوة، وأورد بعض الأقوال فيها، ثم ختم ذلك بقول بعض الشعراء في القهوة:

أقـــول لأصحـــابي عن القهوة انتهوا ... ولا تجلســـــوا بمجلـــس هي فيـــه
وليســـت بمكـــــروه ولا محـــــرّم ... ولكـــن غَدَتْ مشـــرُوبَ كـــلّ سفيه[2]

---

[1] عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، أبو راس الجزائري، ج2، ص 15 (مخطوط المكتبة الوطنية ، الجزائر، رقم 1633).

[2] فتح الإله ومنته، ص ٨٦٥ .

إلاّ أنّ بعض الرحالة يعيب هذا الخلط بين موضوع الرحلة الأساسي ومواضيع أخرى، لأن ذلك يؤدي بالرحالة إلى الخروج عن غرضه الأساسي من تدوين رحلته، فيكثر من الحشو والاستطراد بمناسبة وغير مناسبة . فالرّحالة الغزّال يقول في هذا الصدد: "واقتصرت على تقييد ما شاهدته في الإقامة والرحلة، ولم أتعرض لما هو من طريق المؤرخين من حشو مؤلفاتهم بتكرار أخبار المتقدمين، يعتمدون في ذلك على النقل، ويأتون بما هو مستحيل، وما لا يُجوِّزه العقل، ولا فائدة بالإتيان بما هو مُقرّر معلوم من الأخبار ومحصوله الإعادة للأشياء بلفظها والتكرار".[1]

3- قيم الرحلة:

لقد أصبحت كتب الرحلات عند المغاربة والجزائريين تُمثّل تُحفا فنيّة عالية المثال في النثر العربي، من حيث عناية أصحابها بنحت ألفاظهم، وترتيب معانيهم، وصقل أسلوبهم. فالرونق الأدبي الذي تميزت به الرحلات، لم يُغطّي على المعلومات التاريخية والجغرافية التي سجلّها الرّحالة، بل زادها وضوحا وجلاء.

ولقد احتفظت لنا رحلات المغاربة، بمعلومات هامة عن الأحوال الاجتماعية والثقافية والدينية للبلدان التي قام الرحالون بزيارتها. بالإضافة إلى تراجم عدد كبير من العلماء والأدباء، كما احتفظت لنا هذه الرحلات بنصوص أدبية من شتى الفنون الشعرية والنثرية.

لهذا تجلت في الرحلة عدّة قيم، يمكن إيجازها فيما يلي:

أ – القيمة الأدبية:

وتظهر في أن الرحلة جمعت لنا نصوصا أدبية كثيرة، شعرية ونثرية، من قصائد وموشحات، ورسائل وخطب، وغيرها من النصوص الأدبية التي بقيت كتب الرحلات محتفظة بها، حيث أن بعض هذه النصوص الواردة في الرحلة قد ضاعت أصولها.

إضافة إلى أن الرحلة نشطت همم العلماء والمؤلفين للتأليف، فكانت سببا في إثراء المكتبة العربية بالكثير من الكتب والتصانيف. فمن غير شك، "أنّ النّأي عن الدار، والتّنقل

---

[1] رحلة الغزال، ص 45.

فـــي الأقطـــار، يـــثيران فـــي نفـــس الكاتب من العواطف والخواطر ما لا تثيره الإقامة والاســـتقرار، وهمـــا يهيـــئان الكاتب تهيئة خاصة للشعور والحسّ، وللتّفكير والتّعبير، لا تستقيم له حين يكون مقيما مستقرا في داره بين أهله ومواطنيه"[1].

ب – القيمة الجغرافية :

تعتـــبر الرحلة ذات قيمة جغرافية لما تحتويه من أوصاف كثيرة للبلدان التي كانت مجهولـــة، مثل البلدان التي زارها الرحالة أبو حامد الغرناطي، كبلاد البلغار. كما تحتوي الرحلات على أوصاف للمسالك والطرق المؤدية إلى بلدان بعيدة كالهند والصين.

وقـــد لفـــتت رحلات العرب أنظار الجغرافيين ، فقاموا بدراستها، وأصبحت هذه الرحلات وثائق جغرافية لا يمكن الاستغناء عنها.كما أن الرحلات الحجازية –خصوصا – تركت للحجاج وصفا مفصلا للطرق والمسالك المؤدية إلى الحجاز، فبيّنت الطرق السهلة التي يجب على الحاج المرور بها، والطرق الصعبة التي يجب عليه تجنبها، فيمكن اعتبار بعض الرحلات بمثابة دليل سياحي للحاج والمسافر.

جـــ – القيمة التاريخية:

لقـــد جمعـــت الرحـــلة لمؤرخـــيّ الأدب العـــربي، كثيرا من تراجم العلماء والأدباء والمؤلفيـــن، كما تركت أخبارا هامة عن العديد من المشايخ الذين لم يكونوا ليُعرفوا لو لم يذكـــرهم الـــرحالون في رحلاتهم. كما تركت الرحلة معلومات تاريخية هامة، عن بعض البلدان والأماكن والمناطق، التي لم يكن أحد قد زارها من قبل فوجد المؤرخون فيها مادة هامـــة يُثرون بها مؤلفاتهم كما احتفظت لنا الرحلات بأسماء كثير من المدن والقرى التي اندثرت وعفي رسمها، ولم تبق منها إلا أسماؤها الدالة والشاهدة على وجودها.

د– القيمة الاجتماعية:

لقـــد تركت لنا الرحلة أوصافا كثيرة لعادات الناس وتقاليدهم، وطرق عيشهم، في مختلف البلدان والعصور، فالرحلات المغربية – مثلا– عرّفت القارئ في المغرب العربي بمـــا كـــان يجـــري فـــي المشرق العربي، وما فيه من محاسن ومساوئ، وقوة وضعف، وصلاح وفساد[2].

---

[1] من بعيد، طه حسين، ص 5–6، دار العلم للملايين، بيروت، 1967م.

[2] فنون النثر الأدبي في الجزائر، عبد المالك مرتاض، ص 298، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، 1983.

فالرحالة ابن جبير مثلا وصف لنا عادة المكس في دول المشرق العربي، واستهجن الطريقة التي يعامل بها الحجاج في مصر، فقال: ".. يوم نزولنا بالاسكندرية فمن أول ما شاهدنا أن طلع أمناء إلى المركب، لتقييد جميع ما جُلب فيه، فاستُحضر جميع من كان فيه من المسلمين واحدا واحدا، وكُتبت أسماؤهم وصفاتهم وأسماء بلادهم، وسُئل كل واحد عما لديه من سلع ليؤدي زكاة ذلك كله، وكان أكثرهم مشخصين لأداء الفريضة، لم يستصحبوا سوى زاد لطريقهم".[1]

فرحلة ابن جبير، صوّرت لنا جانبا هاما من الحياة الاجتماعية، بمحاسنها ومساوئها، في مصر والشام والعراق، على عهد صلاح الدين الأيوبي. كما تركت لنا رحلة المقري فكرة عامة عن المجتمع المغاربي، في القرن العاشر الهجري، وتركت لنا صورة واضحة عن عقلية المغاربة في تلك الفترة، من إيلاع شديد بالتصوف، واحترام عميق للطريقة، وتعلّق متين بأصحاب الزوايا، وميل فاحش إلى نقاش القضايا الروحية[2].

هـ - القيمة القصصية:

لقد اهتم الكثير من الرّحالة بسرد القصص والأساطير المسلّية والمعبّرة ضمن تسجيلهم لرحلاتهم، وهذه القصص يطغى على معظمها عنصر الغريب والعجيب، تمتزج فيها الحقيقة بالخيال. فكانت بعض الرحلات، مثل رحلة ابن بطوطة ورحلة الغرناطي، مليئة بالقصص والحكايات الشعبية المسلية والمثيرة التي يجد فيها القارئ كثيرا من المتعة والفائدة والجاذبية كقصة طائر الرّخّ، وقصة مدينة شدّاد إرم ذات العماد، وقصة مدينة النحاس التي بناها الجن[3]، وغيرها من القصص الخرافية والأسطورية. لهذا ذهب الدكتور شوقي ضيف إلى اعتبار أدب الرحلات عند العرب، أصدق دليل على تفوّقهم في فن القصة منذ القديم.

---

[1] رحلة ابن جبير، ص 157.

[2] فنون النثر الأدبي في الجزائر، ص 300.

[3] تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، إسماعيل العربي، ص 47، 51، 118، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989م.

و – القيمة الدينية :

وتتمثل هذه القيمة في وجهين:

الوجـــه الأول: يتمثل في تأثر الرحالة بالقرآن الكريم، والأحاديث النبوية الشريفة، كما ضـــمنوا نصـــوص رحلاتهـــم بعـــض الآيـــات القرآنية، كما فعل المقري، وابن جبير، والناصري، وغيرهم.

أمـــا الوجه الآخر، فهو أن الرحلات الحجازية – خصوصا- تركت للمسلمين أوصافا مستفيضة عن كيفية أداء فرائض الحج وأركانه، وما هي الأمور التي يجب فعلها، وما هي الأمـــور الـــتي يجـــب تجنبها، بكل دقة وتفصيل. كما تركت هذه الرحلات أوصافا كاملة للأمـــاكن المقدسة والمزارات، كمكّة المكرمة، والمدينة المنّورة، وقبر الرسول صلى الله عـــليه وســـلم وجبل أحد، وغيرها من الأماكن الشريفة التي لها قيمة دينية عند المسلمين. فالرحلات الحجازية تعتبر كدليل ديني للحاج والمعتمر.

ز – القيمة الأخلاقية:

إن الرحـــلة فـــي سبيل طلب العلم، أو أداء فريضة الحج، ليست انتقال عامل من بلاد قريب إلى بلد ناء، ولا ارتحال طالب قوت من أرض مجذبة إلى أرض خصبة، إنّها تخلّي رجـــل آمن في سربه، مُمتدّ الجذور في مكانه، عن أهله وولده وماله وبلده، وانطلاقه نحو هدفه، لا يدري ما تتمخّض عنه رحلته من متاعب ومشاق، فقد يهلك في أوائل الطريق أو نهايـــته. لكـــن إيمان الرحالة العميق بهدفه الذي خرج مرتحلا من أجله، جعله ينطلق في طول البلاد وعرضها، رضيّ الضمير، وضّاء الوجه ، لا يلوي على شيء مما وراءه.

فالـــرحالة أحمد المقري – مثلا- حين تواجده في مصر ، رغم قلّة ذات يده، والأذى الـــذي لحقـــه من قبل بعض علمائها، ورغم أنه كان يبيع كتبه ليقتات، لكنه أبى إلا البقاء هـــناك، ليتصل بالعلماء والشيوخ وطلبة العلم ، قصد تبليغهم ما خرج من أجله، لأنه كان يعـــرف جيّدا أن القاهرة في تلك الفترة – القرن العاشر الهجري- ، كانت أعظم حاضرة لـــلعالم الإسلامي. ونطقة عبور لمسلمين من المغرب، ومركز تلاقي لكل المسلمين شرقا وغـــربا. فـــتحمل المقـــري، العوز والأذى والإهمال في سبيل الوصول إلى هدفه، وأداء رسالته، التي هي نشر العلم والمعرفة والفكر.

هـــنا تتجلى القيمة الأخلاقية التي تضمّنتها الرحلة، والتي جسّدها الرحالة أنفسهم، حين تحملوا عناء كثيرا، ومشقة كبيرة، في سبيل طلب علم، أو نشر معرفة، أو تعميم فكر، أو أداء فريضـــة. كما تحلّوا بالصّبر والأناة والحلم والمثابرة، وتعرضوا للمخاطر والمهالك أثـــناء رحلاتهـــم، فتركوا لنا صورا رائعة لعلوّ الهمّة، ورباطة الجأش والشجاعة ورفعة الأخلاق.

خاتمة

خاتمة :

بعـــد هذه الدراسة المتواضعة لأدب الرحّالة الجزائريّين في الخمسيّة الهجريّة الثانية، وبعد فحص بعض جوانب الموضوع، وقفت على النتائج الآتية:

أولا: إن الـــرّحلات الأولى لـــلمغاربة إلى المشـــرق العربي، بعد انتشار الإسلام في المغرب، ساهمت إسهاما عظيما في تعريب سكان المنطقة، ونشر تعاليم الدين الحنيف.

ثانيـــا: إن الرحلة ساعدت على جلب المعارف والعلوم إلى المغرب، فقد قام المغاربة بـــرحلاتهم إلى المشـــرق، وتزوّدوا هناك بشتّى أنواع العلوم، ولدى عودتهم إلى بلادهم ، قـــاموا باقتـــناء كـــتب كثيرة أدخلوها معهم إلى المغرب، وعملوا على إقرائها ودراستها وشـــرحها.فـــابن زيـــتون (ت: 691 هـــ) يُعتبر أوّل من أدخل كتاب الفخر الرازي في الأصـــول إلى المغـــرب، وقـــام بتدريسه، وقد أحدث تحوّلا كبيرا في أساليب التعليم في المغرب العربي.

والشـــيخ ناصـــر الديـــن الزواوي، هو أول من أدخل كتاب ابن الحاجب الفرعي إلى بجاية، وقام بتدريسه، فانتشر هذا الكتاب وعمم على طلبة العلم في المغرب العربي.

والشـــيخ يحي بن يحي المصمودي، هو أول من أدخل الموطأ إلى المغرب والأندلس، فـــأكب الناس عليه يقرأونه، حتى أصبح كل رواة الموطأ في المغرب والأندلس، يصلون ســـندهم الأعـــلى بيحـــي بن يحي. فكانت الرحلة وراء انتشار الكتب والأفكار والمذاهب والعلوم.

ثالـــثا: إن الرحالة المغاربة والجزائريين، لم يكونوا ناقلين لعلوم المشرق وحسب، بل نقـــلوا علوما لم تكن معروفة عند المشارقة، كعلم التوحيد، الذي كان يسميه المشارقة "علم المغاربة"، حيث لم يكن شأوهم فيه يلحق. فأحمد المقري – مثلا– حين جلوسه للدرس في الجامع الأزهر بمصر، كان يشرح عقائد السنوسي في التوحيد، وكان يعمل على نشر هذه العقيـــدة، وكـــان له مجلس عظيم يورد فيه الأعاجيب، ما يدل على اهتمام المشارقة بعلم العقائد، الذي عرف بفن أهل المغرب.

فلولا الرحلة لما عرف المغاربة مذهب الإمام مالك، ولولا الرحلة لما عرف المشارقة عقيدة السنوسي في التوحيد.

رابعا: إن الرحالة المغاربة، عملوا على لفت انتباه المشارقة إلى الخصائص الفكرية والثقافية للمغاربة، فبينوا لهم أن المغاربة ليسوا مُجرّد ناقلين ومُقلّدين، بل إنهم استطاعوا استيعاب العلوم التي درسوها في المشرق، ثم نسجوا على منوالها، ليتمكنوا أخيرا من بلورة هذه العلوم وتطويرها، ثم الإتيان بالجديد. كما أن الرحالة المغاربة، وبعد أن أنسوا من أنفسهم المقدرة العلمية، تنقلوا في البلاد العربية والإسلامية، حتى يبرزوا مقدرتهم واستطاعهم على الإبداع في شتى العلوم والفنون، من أدب وفقه وتفسير وحديث.

خامسا: إن الرحلة نشّطت هِمَمَ الرحالين المغاربة، على التأليف والتّصنيف والكتابة، فعبد الرحمن بن خلدون لو لم يقُم برحلاته في الجنوب الجزائري، لما قام بتأليف مقدمته الشهيرة وتاريخه، وأحمد المقري لو لم يقم برحلته إلى المغرب الأقصى، لما قام بتأليف كتابه "روضة الآس" الذي وضعه خصيصا للتعريف بالعلماء الذين لقيهم بفاس ومراكش. ولولا رحلته إلى المشرق لما قام بتأليف كتابه "نفح الطيب" الذي ألفه بطلب من علماء الشام. وكتب الرحلات نفسها لم تكن لتُؤلّف، لولا قيام الرحالة برحلاتهم وزياراتهم.

سادسا: إن كتب الرحلات سلطت الضوء على شخصيات علمية في المشرق والمغرب، لم تكن لتُعرف لولا مؤلفات الرحالين. فالمقري –مثلا– عرّف العالم الإسلامي بشخصيات علمية كثيرة، من أمثال: القاضي عياض السبتي، ولسان الدين بن الخطيب، والشيخ السنوسي، وغيرهم.

سابعا: إن كتب الرحلات حفظت لنا نصوصا أدبية قيمة، شعرا ونثرا، كما حفظت لنا تراجم كثيرة لأدباء وعلماء وفقهاء من المشرق والمغرب. كما حفظت لنا الرحلات، أوصافا ضافية لجوانب كثيرة من الحياة العلمية والاجتماعية والسياسية والدينية، في مختلف الأقطار والعصور.

ثامنا: لقد تفوق المغاربة في أدب الرحلة تفوقا كبيرا، حتى أصبحوا رواده بلا منازع، هـذا لا يعني أن المشارقة لم يعرفوا أدب الرحلة، لكن كتب رحلاتهم اعتمدت كثيرا على النقل من كتب التاريخ والجغرافيا والرحلات. أما المغاربة فقد ألفوا رحلاتهم اعتمادا على مشـاهداتهم الشخصية، وتجاربهم الذاتية، فأعطوا للرحلة طابعا خاصا ومُميّزا، فلسنا نبالغ إذا أطلقنا على أدب الرحلة إسم أدب المغاربة، فقد كانوا حُجّاجا وطُلاّب علم يسيرون في الأرض، ويخـترقون الآفـاق، يتحدّون في سبيل ذلك الأهوال والمخاطر، يُسجلون ما يقع تحـت أعينهم، ويُدوّنون ما يُلفت انتباههم، فمن كان منهم مُتعلّما يزور في طريق رحلته، مراكز الثقافة الإسلامية، فيستمع لكبار الشيوخ والأساتذة. ومن كان منهم عالما يزور في طـريقه القيـروان والأزهر ليُلقي ثمّة الدروس، فهم جميعا في حلّهم وترحالهم وظعنهم وإقامتهم، يُفيدون ويستفيدون، ومن شفافهم تنتشر الأفكار والعلوم في كل صوب.

أخيرا، لا بأس بطرح الأسئلة التالية :

- مـا المصـير الـذي كان سيؤول إليه الأدب في المغرب العربي، لو لم تكن هناك الرحلة في سبيل طلب العلم؟
- هـل كان الأدب في المغرب العربي، وسائر العلوم الأخرى ستصل إلى المستوى الذي وصلت إليه الآن، من دون قيام المغاربة برحلاتهم؟

ربمـا سـيجد الـباحث في الإجابة عن هذه الأسئلة، موضوع دراسة جديدة، تضيء جوانب أخرى من موضوع أدب الرحلة، لم أتمكن من التطرق إليها. فمن حق أدب الرحلة – عـلى الكـتاب والدارسين والباحثين– أن تتناوله أقلامهم الجادة، وأن تكثر فيه البحوث القيمة، وأن يلقى من العناية ما يناسب جلال موضوعه.

اللّهم صلّ على محمد وعلى آل محمد.

وما توفيقي إلاّ بالله، عليه توكّلت وعليه فليتوكّل المُتوكّلون.

الفهارس الفنية

1- فهرس الكتب الواردة في متن البحث

الكتاب **الصفحة**

- إفحام المُماري بأخبار تميم الدّاري ، محمد المقدسي.....3.
- اقتفاء الآثار بعد ذهاب أهل الآثار، عبد الله العياشي.....23.
- إزالةُ الحاجب عن فروع ابن الحاجب، محمد ابن مرزوق الخطيب .....38.
- الاكتفاء في تاريخ الخلفاء، سليمان الكلاعي.....45.
- إحياء علوم الدين ، أبو حامد الغزالي.....68.
- أزهار الكمامة في أخبار العمامة، أحمد المقري.....82.
- إضاءة الدُّجنة في عقائد أهل السُّنة، أحمد المقري.....73.
- التّسهيل المُطْلب في تحصيل المذهب، محمد بن رمامة القلعي.....10.
- تاجُ المَفْرق في تحلية علماء المشرق ، خالد البلوي.....15.
- التّعريف بما للفقير من التّواليف ، أحمد السّاسي البوني.....23.
- دُرُّ السّحابة فيمن دخل المغرب من الصّحابة، أبو راس النّاصري.....26.
- الرّوضة الشّهية في الرّحلة الحجازية ، أحمد البوني.....24.
- زهرة الشماريخ في علم التاريخ ، أبو راس الناصري.....26.
- الشِّفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض السبتي.....45.
- فتح الباري في شرح صحيح البخاري، أحمد البوني.....23.
- لواء النصر في علماء العصر، أحمد بن عمار الجزائري.....31.
- المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى ، أبو مدين شعيب الأندلسي.....69.
- النّفحة المسكيّة في السّفارة التُّركية، علي التمقروتي.....23.
- النّفحة العنبرية بنظم السيرة الطبرية، أحمد البوني.....23.
- نِحلةُ اللّبيب بأخبار الرّحلة إلى الحبيب، أحمد بن عمار الجزائري.....31.

2- فهرس أسماء الأعلام

الهمزة

- إبراهيم الآيسي ..... 74.
- إبراهيم المريني (أبو سالم) ..... 42، 51.
- إبراهيم المستنصر (أبو إسحاق) ..... 43.
- أبو القاسم البكري ..... 10.
- أبو القاسم الزياني ..... 29.
- أحمد الآيسي ..... 74.
- أحمد بابا التنبكي (أبو العباس) ..... 72.
- أحمد الباغائي (أبو العباس) ..... 9.
- أحمد بن شاهين الصقلي ..... 85، 86.
- أحمد بن الشريف الحسني (أبو العباس) ..... 52.
- أحمد بن عاشر ..... 66، 77.
- أحمد بن عمار الجزائري ..... 30.
- أحمد بن فرج الإشبيلي (أبو العباس) ..... 64.
- أحمد بن فضلان ..... 4.
- أحمد بن القباب الفاسي (أبو العباس) ..... 63.
- أحمد بن القصار (أبو العباس) ..... 47.
- أحمد بن القنفذ القسنطيني (أبو العباس) ..... 63.
- أحمد التادلي الصومعي (أبو العباس) ..... 72.
- أحمد الداودي التلمساني (أبو جعفر) ..... 10.
- أحمد الساسي البوني (أبو العباس) ..... 23.
- أحمد السبتي (أبو العباس) ..... 77.
- أحمد الغزّال ..... 15، 30، 31.
- أحمد المقري التلمساني (أبو العباس) ..... 71، 82، 83.
- أحمد المنصور الذهبي (أبو العباس) ..... 74.

الباء

- البشير الإبراهيمي ..... 3، 14.
- بكر بن حماد التاهرتي ..... 9.

التاء

- تميم الداري ..... 3.
- تيمور لنك التتري ..... 61.

الجاء

- حسان بن النعمان ..... 8.
- الحسن بن اسماعيل الواسطي (أبو محمد) ..... 37.
- حسن بن الفكون القسنطيني (أبو علي) ..... 33.
- حسين بن باديس القسنطيني (أبو علي) ..... 69.
- الحسين الورتلاني ..... 5، 25.

الخاء

- خالد بن عيسى البلوي (أبو البقاء) ..... 15.
- خليل المرادي ..... 30.

الزاي

- زكرياء بن اللحياني الهنتاني ..... 20.

السين

- سحنون بن سعد ..... 9.
- سعيد المقري (أبو عثمان) ..... 72.
- سليمان الكلاعي ..... 45.

الشين

- شعيب بن الحسين الأندلسي (أبو مدين) ..... 41، 56، 70.

العين

- عبد الجبار بن النعمان المعتزلي ..... 62.
- عبد الرحمن بن الإمام (أبو زيد) ..... 38.
- عبد الرحمن بن خلدون (أبو زيد) ..... 47، 51، 54، 61.

- عبد الرحمن السيوطي..... 33.
- عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري..... 24.
- عبد العزيز القشتالي (أبو فارس)..... 72.
- عبد العزيز المريني (أبو فارس)..... 56.
- عبد القادر المشرفي..... 27.
- عبد الكريم بن الفكون..... 16.
- عبد الله البكري..... 4.
- عبد الله بن أبي السرح..... 8.
- عبد الله بن برطلة (أبو محمد)..... 69.
- عبد الله التجاني (أبو محمد)..... 20.
- عبد الله العياشي (أبو سليم)..... 23.
- عبد الله المالقي (أبو القاسم)..... 48.
- عبد الله الوانغيلي (أبو محمد)..... 64.
- عبد المهيمن الحضرمي..... 49.
- عبد الواحد الصنهاجي (أبو محمد)..... 69.
- عز الدين بن جماعة الشافعي..... 39.
- علي التمقروني (أبو الحسن)..... 16، 22.
- علي السلاسي (أبو الحسن)..... 72.
- علي المريني (أبو الحسن)..... 37، 44، 45، 50.
- عمر الرجراجي..... 68.
- عياض السبتي (أبو الفضل)..... 38، 45، 73.
- عيسى بن الإمام (أبو موسى)..... 38.
- عيسى الجزولي (أبو موسى)..... 69.
- عيسى المكي (أبو عبد الله)..... 37.

الفاء

- فارس المريني (أبو عنان)..... 50، 51.
- الفضيل الورتلاني..... 3.

القاف

- القاسم التجيبي ..... 16، 20.

الميم

- محمد الآبلي (أبو عبد الله) ..... 37، 48.
- محمد أبو راس الناصري ..... 26، 27.
- محمد الإدريسي (أبو عبد الله) ..... 15، 19.
- محمد البرجي الغرناطي (أبو القاسم) ..... 51.
- محمد بن الأحمر النصري (أبو عبد الله) ..... 53.
- محمد بن بحر (أبو عبد الله) ..... 47.
- محمد بن بُرَّال (أبو عبد الله) ..... 47.
- محمد بن بطوطة الطنجي ..... 15، 21.
- محمد بن جبير الأندلسي (أبو الحسن) ..... 05.
- محمد بن جزيّ ..... 22.
- محمد بن حوقل البغدادي ..... 4.
- محمد بن خلف الخزرجي (أبو عبد الله) ..... 37.
- محمد بن رُشيد السبتي (أبو عبد الله) ..... 5، 14، 22.
- محمد بن زاكور الفاسي (أبو عبد الله) ..... 14، 24.
- محمد بن عثمان الكردي ..... 27، 29.
- محمد بن علي بن رمامة (أبو عبد الله) ..... 10.
- محمد بن مرزوق التلمساني (أبو عبد الله) ..... 36،37، 39، 40.
- محمد الجناني الفاسي (أبو عبد الله) ..... 68.
- محمد الدرعي الناصري ..... 14.
- محمد الرندي (أبو عبد الله) ..... 68.
- محمد السطي (أبو عبد الله) ..... 48.
- محمد السلماني (لسان الدين بن الخطيب) ..... 30، 42، 49، 55، 73، 78.
- محمد الشريف الحسني التلمساني (أبو عبد الله) ..... 51، 64.
- محمد المقدسي (أبو عبد الله) ..... 3، 5.

3- فهرس المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم: برواية ورش**
- **المخطوطات**

1. زهر البستان في دولة بني زيان، مؤلف مجهول، الجزء 2، مخطوط خاص.
2. عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، أبو راس الجزائري، الجزء : 1 و2، مخطوط المكتبة الوطنية الجزائرية ، رقم 1633.

- **المصادر**

1. آثار البشير الإبراهيمي، الجزء 4، الشركة الوطنية لنشر والتوزيع، الجزائر، 1985م.
2. آثار البلاد وأخبار العباد، زكريا القزويني، دار صادر، بيروت، 1969 م.
3. الإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدين بن الخطيب، الجزء 2، مطبعة الموسوعات ، القاهرة ، 1319 هـ.
4. أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، محمد المقدسي ، ليدن، 1906 م.
5. أزهار الرياض في أخبار عياض، أحمد المقري، ت: مصطفى السقا، الجزء 2، مطبعة لجنة التأليف، القاهرة، 1940م.
6. الاستقصا في أخبار المغرب الأقصى، الناصري السلاوي، الجزء 4، دار الكتب ، المغرب، 1954 م.
7. الإلماع في معرفة أصول الرواية وتقييد السماع، القاضي عياض، ت: أحمد صفر، دار التراث، مصر، 1970م.
8. أنس الفقير وعز الحقير، ابن قنفذ القسنطيني، ت: أحمد الفاسي، أدولف فور، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، 1963م.
9. البخلاء، الجاحظ، ت: فوزي عطوي، الشركة اللبنانية للكتاب، بيروت، 1969م.
10. البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ابن مريم، مراجعة: ابن أبي شنب، المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1908م.
11. بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، يحي بن خلدون ، ت: عبد الحميد حاجيات، الجزء 1، المكتبة الوطنية، الجزائر ، داس.
12. تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، أبو حامد الغرناطي، ت: اسماعيل العربي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989م.

13. تـرتيب المـدارك، القاضي عياض، ت: محمد بن تاويت الطنجي، الجزء 1، الرباط ، داس .
14. الـتعريف بـابن خلدون← ورحلته شرقا وغربا ، عبد الرحمن بن خلدون ، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1979م.
15. تعـريف الخـلف برجال السلف، محمد الحفناوي، الجزء 1و2، موفم للنشر، الجزائر، 1991م.
16. خلاصـة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر ، المحبّي ، الجزء1، دار صادر، بيروت، داس.
17. دائـرة معـارف القرن 20، د.محمد وجدي ، الجزء 1، دار المعرفة ، بيروت، ط3، 1971م.
18. الـدرر الكامـنة، ابـن حجر العسقلاني، ت: محمد جاد الحق، الجزء 1و2و3و4و5، القاهرة، 1966م.
19. دليل مؤرخ المغرب، عبد السلام بن سودة، الجزء 1، تطوان، المغرب، داس.
20. ديوان الشافعي، ت: زهدي يكن، دار الثقافة، بيروت، 1961م.
21. ذرة الحجـال في أسماء الرجال، أحمد بن القاضي، ت: محمد أبو النور، الجزء 1، دار التراث ، القاهرة ، 1970م.
22. رحـلة ابن بطوطة (تُحفة النُظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) ، تقديم : كرم بناني ، دار صادر ، بيروت، 1964م.
23. رحـلة ابـن جبير (تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار)، تحقيق: مصطفى زيادة، دار الكتاب، لبنان، داس.
24. رحـلة ابـن حمادوش (لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال)، تحقيق: أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1983م.
25. رحلة التجاني، ت: حسن حسني عبد الوهاب، المطبعة الرستمية ، تونس ، 1958م.
26. رحلة الزياني (الترجمانة الكبرى)، تحقيق : عبد الكريم الفلالي ، المغرب، 1967م.
27. رحلة العبدري (الرحلة المغربية)، ت: محمد الفاسي ، الرباط، 1968م.
28. الرحلة العياشية (ماء الموائد) الجزء 1و2، فاس ، 1316 هـ.
29. رحلة الغزال (نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد)، ت: اسماعيل العربي، ديوان المطبوعت الجامعية، الجزائر، 1984م.

30. رحلة القلصادي، ت: محمد أبو الجفان، الشركة التونسية للتوزيع، 1978م.
31. رحلة الورتلاني (نُزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار)، تحقيق: محمد بن أبي شنب، مطبعة بيير فونتان، الجزائر، 1968م.
32. روضـــة الآس العاطرة الأنفاس، أحمد المقري، ت: عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية ، الرباط، 1960م.
33. شـــجرة النور الزكية في طبقات المالكية، محمد مخلوف، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1349هـ.
34. صورة الأرض، محمد بن حوقل البغدادي، طبع ليدن، 1938 هـ.
35. الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع، السخاوي ، الجزء 4، القاهرة ، 1353 هـ.
36. العـــبر، ديـــوان المبتدأ والخبر، عبد الرحمن بن خلدون، الجزء 7، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1957م.
37. عـــنوان الدراية، الغبريني، ت: رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ، 1981م.
38. فـــتح الإلـــه ومنـــته، أبو راس الجزائري، ت: محمد بن عبد الكريم، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990م.
39. فقـــه الـــلغة ، عبد الملك الثعالبي، ت: جمال طلبة، دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان، داس.
40. فهـــرس الفهـــارس، عـــبد الحـــي الكـــتاني، ت: إحسان عباس، الجزء 1، دار الغرب الإسلامي،ط2، 1982 م.
41. القاموس المحيط، الفيروز أبادي، الجزء 3، دار الكتب العلمية، لبنان، 1995م.
42. كشف الظنون عن أسامي الفنون، حاجي خليفة، الجزء1، اسطنبول، داس.
43. لسان العرب، ابن منظور الإفريقي، المجلد 11، دار صادر ، بيروت، 1968م.
44. المؤنس، ابن أبي دينار القيرواني، ت: محمد شمام، تونس، 1967م.
45. المثل السائر، ضياء الدين بن الأثير، طبع بولاق، 1282 هـ.
46. مختار الصحاح، محمد الرازي، تحقيق: مصطفى البغا، دار الهدى، الجزائر، داس.
47. مســـتفاد الرحلة والاغتراب، القاسم التجيني، ت: عبد الحفيظ بن منصور، الدار العربية للكتاب، تونس، داس.

48. المسند الصحيح الحسن، محمد بن مرزوق الخطيب، ت: محمد بوعياد، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ، الجزائر، 1981م.
49. معالم الإيمان، الدباغ، الجزء 1، تونس، 1330 هـ.
50. معجم البلدان، ياقوت الحموي، الجزء 2، دار صادر، بيروت، 1955 م.
51. معجم ما استعجم، عبد الله البكري، مطبعة لجنة التأليف، القاهرة، 1945 م.
52. مقدمة ابن خلدون، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1983م.
53. نشر أزاهير البستان، ابن زاكور الفاسي، ت: عبد الوهاب بن منصور، الرباط، 1967م.
54. نفح الطيب، أحمد المقري، ت: إحسن عباس، الجزء1،2،3،4،5،8دار صادر، بيروت، 1969م.
55. نيل الابتهاج بتطريز الديباج، أحمد بابا التنبيكتي، مطبعة العادي، مصر، 1329 هـ.
56. هدية العارفين، اسماعيل باشا البغدادي، الجزء 6، اسطنبول، 1951م.
57. الوفيات، ابن قنفذ القسنطيني، ت: عادل نويهض، المكتب التجاري للطباعة، بيروت، 1971م.

- **المراجع**

1. أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، أبو القاسم سعد الله ، الجزء 1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1981م.
2. ابن خلدون، أفرام البستاني، دار المشرق، بيروت، ط2، 1982م.
3. اتجاهات الرحالين الجزائريين في الرحلة العربية الحديثة، عمر بن قينة، ديوان المطبوعات الجامعية، 1995م.
4. أدب المغرب العربي قديما، د.عمر بن قينة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1994م.
5. تاريخ الأدب الجغرافي العربي، أغناطيوس كراتشوفسكي، ترجمة: صلاح الدين هاشم، الجزء 1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1957م.
6. تاريخ الأدب العربي ؛ عمر فروخ، الجزء 6، دار العلم للملاين، بيروت، 1983 م.
7. تاريخ الجزائر الثقافي ؛ أبو القاسم سعد الله، الجزء1، دار مكتبة الحياة، بيروت، ط2، 1965م.
8. تاريخ الجزائر العام، عبد الرحمن الجيلالي، الجزء 1، دار مكتبة الحياة، الجزائر، 1986م.

فهرس الموضوعات

إهداء

كلمة شكر

مقدمة ..... أ

مدخل : نبذة عن تاريخ الرحلة. 1

1- الرحلة عند الأمم: 1

2- الرحلة عند العرب: 3

الفصل الأول : الرّحلة في المغرب العربي : نشأتها، أهدافها وروادها. 6

المبحث الأول: مفهوم الرحلة. 6

1- الرحلة لغة: 6

2- الرحلة اصطلاحا: 6

المبحث الثاني : الرحلة في المغرب العربي 7

1- ظهور الرحلة في المغرب العربي: 7

2- الرحلة في المغرب العربي دوافعها وأسبابها : 11

3- أنواع الرحلات في المغرب العربي: 12

4- فوائد الرّحلة ودواعي تدوينها: 17

المبحث الثالث: رواد الرحلة في المغرب العربي 19

الفصل الثاني : الرحالة الجزائريون في الخمسية الهجرية الثانية. 32

المبحث الأول: حسن بن الفكون القسنطيني 33

1- أوليته : 33

2- رحلته : 33

المبحث الثاني: ابن مرزوق الخطيب التلمساني (710-781هـ/1311-1382م) 36

1- أوليته: 36

2- شيوخ ابن مرزوق: 37

3. مؤلفات ابن مرزوق: 38

4- رحلة ابن مرزوق: 38

5- نصوص من رحلة بن مرزوق : 44

المبحث الثالث: عبد الرحمن بن خلدون (732- 808 هـ) 47

1- نسبه وأوليته: 47
2- شيوخ بن خلدون : 48
3- مؤلفات ابن خلدون: 49
4- رحلة ابن خلدون: 49
المبحث الرابع: ابن قنفذ القسنطيني (740- 810 هـ): 63
1- أوليته: 63
2- شيوخ ابن قنفذ: 64
3- مؤلفات ابن قنفذ: 64
4- رحلة ابن قنفذ: 65
5- نصوص من رحلة ابن قنفذ: 66
المبحث الخامس: أحمد المقّري التلمساني (990 -1041 هـ) : 71
1- أوليته: 71
2- شيوخ المقري: 72
3- مؤلفات المقري : 73
4- رحلة المقري: 73
الفصل الثالث: الخصائص الفنية والموضوعية للرحلة وقيمها 89
المبحث الأول: الخصائص الفنية للرحلة: 89
1- الشكل – الهيكل العام للرحلة-: 89
2- الخصائص الأسلوبية: 93
3- الخصائص اللغوية : 99
المبحث الثاني : الخصائص الموضوعية 102
1- مضامين الرحلة : 102
2- مواضيع الرحلة: 110
3- قيم الرحلة: 112
خاتمة : 117
الفهارس الفنية 120
١- فهرس أسماء الكتب ١٢٥
٢- فهرس أسماء الأعلام ١٢٩
3- فهرس المصادر والمراجع ١٢٦
فهرس الموضوعات ١٣٥